الدكتور عدنان علي رضا النحوي

المسؤوليّةُ الفرديّةُ في الإسلام

أُسسها، تكاليفها، تميُّزها

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

المسؤولية الفردّية في الإسلام أسسها ، تكاليفها ، تميّزها

الدكتور
عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحـــوي
للنشر والتوزيع

ح دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

المسؤولية الفرديّة في الإسلام أسسها وتكاليفها وتميزها .. الرياض

... ص ، ١٢×١٧ سم

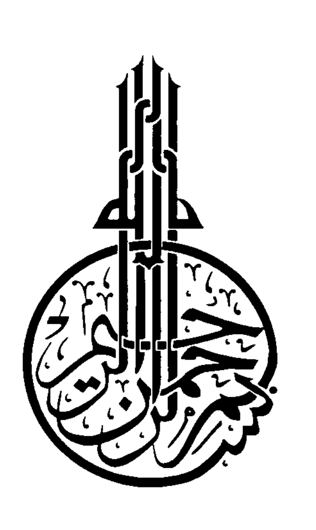
ردمك ٣-٤٧-٦٨٧-٩٩٦٠

١- الإسلام أ- المسؤولية «فقه إسلامي»

ديوي ٢١٩ ١٩/٩١٧

رقم الإيداع : ١٩/٩١٧

ردمك : ٣-٤٧-٦٨٧-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفــون وفـــاكس: ٤٩٣٤٨٤٢
ص.ب: ١٨٩١ الرياض: ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الإهـــــداء

إلى المؤمنين الـذين يحملـون رسالة الله ، إلى الذين عرف كلٌّ منهم التكـاليف الـربـانيـة والمسؤولية التي عليه ، لينطلق هــؤلاء يــوقظــون النـــاس وينصحـونهم ، حتـى ينهض كل إنسان إلى مسؤولياته التي سيحـاسَب عليهـا يـوم القيـامـة بين يدي الله .

الافتتـــــــــاح

﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرّة وتركتم ماخـوَّلناكم وراء ظهـوركم ومانـرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركـاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ماكنتم تزعمون﴾ [الأنعام : ٩٤]

﴿إن كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهـم وعدّهم عدّا * وكلهم آتيه يـوم القيامة فردا﴾ [مريم : ٩٣-٩٥]

﴿فـاستمسك بـالـذي أوحـي إليك إنك على صراط مستقيم* وإنه لذكر لك ولقـومك وسوف تسألون﴾ [الزخرف : ٤٣ ، ٤٤]

﴿فوربك لنسألنّهم أجمعين * عمّا كـانوا يعملون * فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾

[الحجر : ٩٢-٩٤]

﴿ولـو شـاء الله لجعلكم أمـة واحـدة ولكن يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء ولَتُسْأَلُنّ عما كنتم تعملون﴾ [النحل : ٩٣]

مقدّمة

إن موضوع المسؤولية الفردية في الإسلام من أخطر الموضوعات التي تمس واقعنا اليوم ، ومن أهم الموضوعات التي طرحتُها فيما أَصدرتُ من كتب ومقالات .

فلقد تناولتُ هذا الموضوع من بعض جوانبه في حلقات متتالية في مجلة الدعوة . وتناولته من جوانب أخرى في مجلة الخيرية ، وكان باباً مستقلاً في كتاب : « **بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية** » . وطرقت هذا الموضوع بإلحاح كذلك في كتاب «**منهج المؤمن بين العلم والتطبيق** » ، لبيان منزلة المؤمن بين الحقوق والواجبات ، ولبيان العلاقة بين مسؤولية الفرد ومسؤوليّة الأمة . وكذلك ألححتُ بهذا الموضوع في كتب أُخرى من خلال موضوعات متعددة يرتبط بها هذا الموضوع .

لقد غاب دور المسؤولية الفردية عن واقع المسلمين قروناً طويلة ، حتى جمع التاريخ حشوداً هائلة من المسلمين تطويهم الغفوة والسبات العميق ، في لهو وفتنة ، أو في تيه وظلام ، أو في خدر ونوم ، أو في فاحشة وخمور وسائر المخدّرات ، أو في

عصبيات جاهليّة تأكل الجهود ، وتقتلع الغراس وتسحق الثمار ، أو في أهواء هائجة وشهوات ملتهبة ومصالح مادية طاغية .

لقد كانت هذه الملايين الكثيرة من المسلمين الغافين الغافلين مرتعاً خصباً لأعداء الله . وزاد الأمر أسى أن أهمل المسلمون بعضهم بعضاً حتى لم تعد تجتمع الجهود لإيقاظ النائمين ، وحتى فقدت «**الصحوة الإسلامية**» حقيقة التوجيه وجوهر الإرشاد والنصيحة . وظل الإطراء والمديح مجرّداً من أيَّ نصح سبباً في زيادة الغفوة .

ولا أدلَّ على ذلك من أن العالم الإسلاميّ على امتداده تزداد مآسيه ، فتَتَفَتَّح أبوابه إلى الأعداء يسرحون ويمرحون ، والغفاه غفاة ، والغافلون غافلون . ولا أدلَّ على ذلك من ضياع سبعين عاماً أو أكثر من عمل المسلمين في قضيّة فلسطين ، ففقد المسلمون أرضهم فيها وما حقّقوا شعاراتهم المدوّية ، وحقق اليهود أطماعهم ومازالوا ماضين في تحقيق أطماعهم المعلنة والخفية . وخلال هذه السنين الطويلة كان من الصعوبة الكبيرة أن تُقنِع بعض المسلمين بمسؤوليتهم المباشرة الحقيقية

عن فلسطين . ولو شعر أحدهم بهذه المسؤولية لم ينهض إليها النهوض الذي يأمر به الإسلام .

وبناء الأمة المسلمة الواحدة فرض فرضه الله على المسلمين ، وهدف ربانيّ عظيم ، لم يكن يشعر كثير من المسلمين بأهميته ولا بمسؤوليته عن ذلك . إن المسؤولية الفردية في الإسلام هي الأساس العمليّ التطبيقي لبناء الأمة المسلمة الواحدة .

إن قناعة الكثيرين من المسلمين اليوم أن بناء هذه الأمة هي مسؤولية الدعاة أو العلماء ، ذوي السلطة ، وأن باقي المسلمين في الأرض لايحملون شيئاً من هذه المسؤولية . إنَّ وعي المسؤولية الفردية يأتي ليزيل هذا التصوّر الخاطىء من الأذهان ، وليضع المسلم ، كل مسلم ، أمام مسئولياته الحقيقية التي كلفه بها الله ربّ العالمين .

ويجب أن ندرك هذه المسؤوليات لا من مجرَّد خواطر بشرية ، ولكن من نصوص ثابتة في القرآن والسنة ، تبين لنا هذه النصوص أيضاً أن الإنسان محاسَب يوم القيامة عن هذه التكاليف ومدى وفائه بها . وإنها مسؤولية خطيرة في الدنيا ، وحساب في الآخرة . إنها الأمانة التي حملها الإنسان عبادة لله ،

والتي يكون الإنسان ظلوماً جهولاً إذا تركها . إنها أمانة كبيرة ، ومن أهم أركان هذه الأمانة قيام الأمة المسلمة الواحدة وحمايتها لتظل ممتدة مع التاريخ .

ومن أهم مايجب أن نلتفت إليه ونحن نحاول العلاج ، أن لاتتحوّل أساليب العلاج ووسائله إلى تخدير يشل القوى ويعطل العزائم . وإنها لفتة هامة نحتاج إلى أن نقف عندها اليوم وقفة طويلة واعية ، حتى لاتتحول الشعارات إلى طاقة عاطفية خالية من النهج والتخطيط ، فتخدّر أو تدمّر .

وقضية أخرى يتميّز بها الإسلام وتبرزها المسؤولية الفردية ، ألا وهي ارتباط الأجيال المؤمنة كلها لتؤلف أمة مسلمة ممتدة مع العصور كلها ، وليرتبط الماضي بالحاضر والمستقبل ارتباط إيمان وعلم وتاريخ ، وارتباط نهج وتخطيط ، حتى تمتدّ المسؤولية الفردية مع التاريخ كله .

وقضية أخرى ، هي ألاّ تتفتت الدعوة الإسلامية إلى كتل يصارع بعضها بعضاً ، فتموت بذلك روابط الدعوة الإسلامية وخصائصها وقواها ، وتفقد أخوة الإسلام معناها ومبناها ، وتضطرب معاني الإيمان والتوحيد ، معاني الولاء والعهد والحب

الأكبر ، والفطرة السليمة ، ومعاني الأُلوهية والربوبية ، وتُطوَى معاني المسؤوليّة الفردية في الإسلام . قضايا هامة رئيسة يُثيرُها هذا الموضوع الخطير في واقع المسلمين اليوم ، إثارة تفرض علينا الوقوف وقفة إيمانيّة لنراجع مسيرتنا في مختلف القضايا ، ولنحاسب أنفسنا .

إن المنطلق لوعي المسؤولية الفرديّة في الإسلام ليس من عالم الوهم وَالأماني ، ولا من عالم الشكوى والانين ، ولا من عالم الشعارات التي تخدِّر ولا تجد السبيل إلى تحقيقها .

إن المنطلق الحقيقي هو صِدق الإيمان وصفاء التوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، وصدق العلم بالواقع من خلال منهاج الله . وإن هذا المنطلق الحقيقي لايسمح بأن تكون التكاليف أمانيّ وأحلاماً ، ولكن يفرض أن تكون بذلاً حقيقيا ، وجهداً وجهاداً ، ومجاهدة للنفس ، ومضيّاً على صراط مستقيم ، ليكون الدرب جليّاً والأهداف جليّة .

يبدو أن بعض القارئين لهذا الموضوع - المسؤولية الفرديّة في الإسلام - أحسُّوا بخطورة هذا الموضوع في واقعنا اليوم ، وأهميته

وضرورته ، فطلب عدد من القرّاء الكـرام أن أُخرج هذا الموضوع في «**كتاب**» خاص يسهّل دراسته ونشره والتوعية به .

ولذلك أسعى أن أخرج هذا الموضوع في كتاب خاص به ، مع مـوضـوع هـام أيضـاً : «**واقع المسلمين بين العـلاج والتخدير**» ، وأختم الكتاب بموجـز للنظريّة العامـة للدعوة الإسلامية ، النظـرية التي تنطلق منها جميع الـدراسات والجهود بإذن الله .

أسأل الله العفـو والعـافيـة في الـدنيـا والآخـرة ، في ديني ودنياي ، والستر والنجاة في الدنيا والآخرة .

اللهم تقبّل منا عملنا غنيّاً بـرحمتك وفضلك ، نديّاً بعونك ومددك . اللهم اجعله عملاً خالصاً لوجهك الكريم ، طاهراً ، نقيّاً من شوائب الدنيا .

والحمد لله رب العالمين

عدنان علي رضا النحوي

الرياض
الأول من محرّم ١٤١٩هـ
٢٧/ ٤/ ١٩٩٨م



المسؤولية الفردية
جوهرها والأسس
التي تقوم عليها

الفصل الأول
واقع المسلمين
بين العلاج والتخدير

ليست النظرية «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» التي ندعو إليها توجَز بمقالة في صحيفة أو مجلة ، أو محاضرة في ندوة أو مؤتمر ، ثم يُكتفى بذلك الموجز . ولاهي ثمرة لحظات آنية خاطفة أو فكرة عابرة طرأت على البال ثمّ مرّت .

كلاّ ! «**إن النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» دراسات متصلة متتالية استغرقت أكثر من ثلاثين عاماً ظهرت تفصيلاتها وتفصيلات أجزائها في أكثر من أربعة وخمسين كتاباً .

إنها خلاصة الجهد كله ، وخلاصة التجربة في الحياة ، في ميدان الدعوة وخارجها . لا أُنكر أن كثيراً من التجارب كان قاسياً مؤلماً في كثير من الميادين ، ولكنَّ كلَّ تجربة كانت زاداً يُضاف إلى زاد . ويبارك الله في زاد كل إنسان يجنيه من تجاربه ، إذا كانت التجارب مصاحبة للإيمان والتوحيد ، مصاحبة لمنهاج الله ، تُردَّ إليه حتى يتبيّن الخطأ من الصواب والحق من

الباطل ، وإذا كانت التجارب تصاحبها النصيحة الأمينة ، حين يُنصَح المسلم وحين يتقبَّل النصيحة ولايَسْتكبِر عليها ، وحين تخضع النصيحة لقواعدها الربانية وآدابها الإيمانية ، وحين تكون الأمانة نور الفكرة والكلمة ، والرأي والموقف ، والخطوة والسعي .

لقد مرَّ العمل الإسلامي بظروف متبدلة لسنوات طويلة جداً لم تُسجَّل فيها تجارب العمل الإسلامي تسجيلاً منهجياً ، ولاهي تواصلت ليستفيد كل جيل من تجارب الجيل السابق . لقد كان العمل الإسلاميّ **«مُتَقَطِّعاً»** ، لاترتبط حلقاته ولا مسيرته إلا من خلال مذكرات شخصية تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى ، حتى أصبحت كلُّ حركة إسلامية ، حين تستأنف المسيرة ، تكاد تبدأ من نقطة الصفر . فتباعدت الأفكار وتنافرت ، وأخذ التباعد والتنافر يزداد مع الزمن . ورافق ذلك كله **«تقطُّع»** الأُمة المسلمة نفسها إلى قطع متناثرة اختلطت فيها الشعارات والرايات ، وهبّت العصبيات الجاهلية يغذّيها الكافرون والمنافقون ، أعداء الله الطامعون في أرض الإسلام وثرواته .

لقد أدّت هذه الظروف كلها ، وظروف أخرى كثيرة ، إلى انتشار أمراض واسعة في واقع المسلمين اليوم ، أخذت تمتدّ وتنتشر ، وأخذ أعداء الله يغذونها ، حتى أصبح لهم منابر يطلقون منها كلمة الكفر صريحة عالية مدوّية ، أو مُزَخْرَفَة بشتى ألوان الزينة ، أو مخَدِّرة تحمل كل أنواع التخدير ، تنفثه بالدم والعروق والأحناء والقلوب .

ولقد كان من شدة أثر هؤلاء أن استطاعوا أن يخترقوا صف المسلمين بأفرادهم وبأفكارهم ، حتى ظهر الانحراف في فكر بعض المسلمين ، وحتى أخذ هذا الانحراف ينمو ويزداد ويتسع تحت شعارات الإسلام . وأصبحت « العائلية » تأخذ روابط غير روابط الإيمان ، وأصبحت «الوطنية » تحتل منزلة معزولة عن الإيمان والتوحيد ومنهاج الله لدى بعضهم ، وأصبحت الإقليمية والقومية تأخذ الولاء الأعلى والولاء الأول ، وقامت نماذج شتى من الأوثان ، وأخذت الشعارات تدوّي دون أن تجد لها رصيداً من الصدق والأمانة في الواقع .

ولقد آذى جهود الإصلاح ومعالجة الأمراض أو عطّلها

ماكان يطلقه بعض الدعاة من شعارات «**التخدير**» ، يطلقونها بحجّة التثبيت أو التشجيع ، ولكنها بدلاً من ذلك قتلت الحافز للنهوض ، ودفعت الكثيرين للتخاذل والاستسلام ، وجعلت الأفكار تتصادم والصراع يتوالى والمذاهب تتوالد .

« **الصحوة الإسلامية** » كلمة محبَّبة إلى النفوس . كان من المفروض أن تستفيد «الصحوة» من جهود العاملين ليرشدوها ويوجهوها لتخدم الأمة المسلمة ، ولتجمع الكلمة وتوحِّد الجهود ، وتنقذ الأرض والعرض والدم ، ولتنقذ الإنسان المسلم ودينه وشرفه . لقد خدَّرت «شعارات الصحوة» كثيراً من الناس ، حين فُقِدت الدراسات المنهجيّة الفعّالة الواعية ، وحين غابت في بعض الأحيان في صراع التنافس على الدنيا وزهرتها وزهوتها ، وحين أصبح كلٌّ يريد أن يثبت نفسه في الساحة ليُعترف به أنه «**البطل**» .

ودفعت روح التنافس هذه إلى أن «**ينهش**» المسلم عمل أخيه المسلم ، أو ينهش كلمته وفكرته ، ليُنسَب ذلك إلى نفسه ، ولينال ، حسب مايُزيّن له الشيطان ، قصب السبق على غيره ،

في ميدان ليس التنافس الذي يجري فيه هـو التنافس الذي يدعو إليه الإيمان وصفـاؤه ، والإسلام وصدقه ، ففسـدت النية وبطل العمل، وخسر الكثيرون الأجـر والثـواب في كثير من ميـادين البذل والعطاء .

إن التنافس على الدنيا يفسـد النية ويبطل العمل ويذهب بـالأجـر ، دون أن يـدخل في ذلك حق المسلم في حمايـة كلمتـه وفكرته ، وعـرضه وماله ، ووطنـه وداره ، شريطة أن يكون ذلك كلـه على طـريق ممتد في سبيـل الله ، ليكون رضـوان الله والجنـة والـدار الآخـرة هي الهدف الأكبر والأسمـى ، وهي الحافـز والمحرك والموجه ، لا هـدف أعلى من ذلك مهما كان عظيماً ، ولا هـدف يطغى على الهدف الأكبر والأسمى - الجنـة - أبـداً . فتذوب من خلال ذلك كل تطلعـات الدنيا من افتراء وكذب ، وظلم وعـدوان ، وثأر يمتلك على الإنسـان حسه وعـاطفتـه ، حتى يصبح هو هدفه الأعلى المعلن .

لقد آذى جهـود الإصلاح ومعالجة الأمـراض والعلل غلبةُ الهوى وحب الدنيا ، وكثرة المجاملات على حساب الحق البيّن ،

وامتداد الجهل بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ واللغة العربية . لقد عجمت ألسنة العرب ، وغلبت عليها اللهجات العامية واللحن واللغات الأجنبية .

لقد أَصبح من أثر ذلك أن اتخذ بعض الناس أولياء لهم من دون الله ، يحبونهم كحب الله أو أكثر ، فامتد الشرك الخفيّ والعلنيُّ ، وساعد ذلك كله على نفاذ الأفكار المريضة والمنحرفة إلى قلوب كثير من المسلمين وعقولهم :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبَعوا لو أن لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبَرَّؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٥-١٧٦]

فتكوّن في واقع المسلمين تابع ومتبوع . تكوّنت قطعان

سائمة تساق إلى هلاكها في كثير من الأحيان ، حيث طُوِيت «مسؤولية الفرد» ، وكأنّ المسلم شُلَّت قواه ، فما عاد يستطيع أن يقرأ ويدرس ويتَدبَّر ، ولا أن يعيَ ويَتفكَّر ، ولا أن ينهج ويعزم ويعمل . لقد تعطلت قوى الملايين من المسلمين حين تحوّلت إلى قطعان تساق . لقد امتد «الشلَلُ» حتى لم يَعدْ يقوى الفرد أحياناً على النطق ، على إعطاء الرأي ، على إبداء كلمة أو جملة ، كيف يقوى على البذل والعطاء ، ونصرة الحق ، والجلاد والجهاد .

لقد رأينا نماذج شتى من « المشلولين » في الواقع الإسلامي الممتد : منهم من يقول لاتجوز دراسة القرآن وتلاوته وتدبره إلا للعلماء وحدهم فقط ، وأما العامة فلتبق عامة . ونشط دعاة هذه الفتنة التي تدعو إلى «**الشلل**» والجمود .

ورأينا نموذجا آخر يقول لاتقرأ القرآن ولا تتدبره إلا على يد شيخ ، فإذا قيل له انهض واذهب إلى الشيخ ليعلّمك ، قال : وأين هم الشيوخ ، إنهم مشغولون عنا ! أو يُخرج لك من الأعذار مايسوّغ بها الكسل لنفسه .

ونماذج أُخرى تقول لاتقرب السُنَّة فحسبنا القرآن ، ثم يفُسدون على الناس تدبّر القرآن . ونماذج تقول لك اتل كتاب الله ولا بأس عليك أن لاتفهمه فلست مكلَّفاً بفهمه . وربما رأيت من يحفظ القرآن غيباً وهو لايعي كلمة منه ولايعرف اللغة العربية . وربما ينهض أناس ليتلوا القرآن أو يحفظوه دون أن يربطوا دراسته بدراسة السنة ودراسة اللغة العربية ، أو بالممارسة والتطبيق .

ويظل منهاج الله من خلال هذه النماذج لايؤدي الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوة الخاتمة . وبذلك يتخذ الناس «مرجعاً» غير منهاج الله ، مرجعاً من البشر وحدهم ، أو مرجعاً من صناعة البشر ، ولايعود منهاج الله هو مرجع الأمة كلها وفتياتها ، وشيوخها وعلمائها وقادتها .

إن غياب هذا «**المرجع**» الذي أمر الله سبحانه وتعالى أن يكون هو «**المرجع**» للأمة كلها ، إن غياب هذا المرجع عطَّل كثيراً من وسائل العلاج والإصلاح ، وجعل العلل والأمراض تمتد في واقع المسلمين ، وتمتد معها الفواجع والهزائم ، وسقوط الديار بعد الديار ، في بحار من الدم أو في بحار من الاستسلام .

ولقد برز بشكل جليّ أن الأمراض كلها نابعة من مرض أساسي واحد ، هو الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد ، الخلل في فهمها والعمل لها .

من هذا الخلل الخطير والمرض الكبير انبثقت سائر العلل والأمراض في واقع المسلمين على مدى عصور طويلة ، حتى طُرِحتْ بسبب ذلك أشكالٌ شتّى من الانحراف في التصور والفكر والعاطفة والشعور ، والكلمة والموقف .

من هنا إذن يبتدىء الإصلاح والعلاج كما بدأ محمد ﷺ ، وكما بدأ جميع الأنبياء والمرسلين من قبله ، وكما أمر الله سبحانه وتعالى أن يبدأ الإصلاح ! من هناك تبدأ الدعوة الإسلامية في الأرض في جميع العصور ، حيث ترتبط هذه المرحلة بكل مرحلة تالية ، تصاحبها ولا تفارقها . إنها القضية الكبرى في الكون والحياة ، تمضي مع التربية والبناء ومع الجهاد في سبيل الله ، ومع مسيرة الأمة المسلمة الواحدة ، ومع عمارة الأرض بحضارة الإيمان .

من هنا تبتدىء الدعوة الإسلامية ، ومن هنا يبدأ النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية ، ومن هنا تبدأ «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» .

ربما يقول قائل هل في كتاب الله وسنة رسول ﷺ هذا المصطلح «**النظرية العامة في الدعوة الإسلامية**»؟! فنجيب : كلا ! لايوجد هذا المصطلح ، كما أن كثيراً من المصطلحات الفقهية التي ظهرت في تاريخ الفقه الإسلامي لاتجدها في الكتاب والسنة . ولكن المسلمين مطالبون بأن يستحدثوا من المصطلحات مايلائم كل واقع وكل مسألة ، وأن يضعوا من النظريات والمناهج التطبيقية ونماذجها مايحتاجه كل واقع ، على أن يكون ذلك كله نابعاً من قواعد الإيمان والتوحيد ، ومن قواعد منهاج الله ، مرتبطا به خاضعاً له .

يضاف إلى ذلك أن المسلمين مكلَّفون بأن يضعوا من الدراسات التفصيلية مايُقدّم صوراً تطبيقية لمنهاج الله في الواقع أو لبعض قواعده مما يناسب كل واقع ، نظريات ومناهج عملية ونماذج تطبيقية .

إن منهاج الله هو الحق المطلق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب

عزيز ﴿ لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصّلت : ٤١ ، ٤٢]

والمسلمون مكلفون بتطبيق منهاج الله في جميع شؤون حياتهم ، أفراداً وجماعات وشعوباً . ومن خلال هذه الممارسة الإيمانية في ميادين الدعوة والفكر والأدب والسياسة والاقتصاد وغير ذلك ، يمكن أن يضعوا «**نظريات**» تمثل الصورة النظرية للتطبيق أو الممارسة في أي ميدان .

إن هذه «**النظريات** » وما يتبعها من **مناهج ونماذج** هي جزء من **النهج والتخطيط** الذي يحتاجه المسلمون في كل شؤون حياتهم ، والذي هو قاعدة من قواعد العمل بالإسلام في جميع الميادين .

إن **النهج والتخطيط** ضرورة أساسية للمسلمين ، غابت عن واقعهم وحل محلها الارتجال وردود الفعل ، فكانت الهزائم والفواجع . وكان غياب النهج والتخطيط يضاف إلى ماسبق أن ذكرناه من نواحي الخلل ، فأُضيف ضعف إلى ضعف وخلل إلى خلل .

« **فالنظـرية العامـة للدعوة الإسـلامية** » تجمع القواعد العامة الـرئيسة من منهاج الله ، لتُذَكِّر بها من نـاحية ، ولتعالج بها أمراض الواقع وعلله .

ولاتقتصر «**النظـريـة العامـة** » في حقيقتها على مانعـرضه هنا . إننا نعـرض هنا بناء النظريـة العامة وخطوطهـا العريضة وأجـزاءهـا وبنودهـا . إننـا نعـرض قـاعدتها الصلبـة وركنيهـا ومشكلات الـواقع الرئيسة التي تتحول إلى أسس أربعـة في حياة الدعاة ، ثم نعرض عناصر التنفيذ .

وكما ذكـرنا فلكل جـزء أو بنـد أو عنصر للنظريـة العامـة دراسات مفصلة في «**كتب الدعوة**» ، حيث يأخـذ كل كتاب مكانه الأمين في نهج محدد ونظرية محددة .

هـذه الكتب تمثل جهـداً بشريـاً . والكتب التي يُقـدّمهـا الجهـد البشريّ المؤمن لها دور خـاص في الـدعوة الإسـلاميـة . ولكنها لايمكن أن تحل بأي حـال من الأحوال محل منهاج الله . فلمنهاج الله دور متميّـز في الدعـوة ، وفي حياة المسلمين ، وفي حيـاة البشريـة كلها ، لايمكن لأي كتـاب أو كتب أن تقـوم أو

تــؤدي دوره . إن جميع كتب المسلمين في تــاريخهم الطــويل لانستيطيع أن تــؤدي دور منهــاج الله . هــذه حقيقــة يجب أن تكون بارزة قوية في واقع الـدعوة الإسلامية وفي واقع المسلمين . وكـذلك لاتستطيع كتب البشرية كلهـا ، ماسبق منهـا وماهـو قـائم وما سيأتي مستقبـلاً ، أن تـؤدي دور منهاج الله أبـداً ، في الدعوة أو التربيـة والبناء ، أو الجهاد والجلاد ، أو غير ذلك من الأهداف أَو الميادين .

ولذلك تجيء «**النظـريـة العـامـة للدعـوة الإسـلاميـة**» لتبرز هـذا الــدور العظيم لمنهـاج الله ،ولتبيِّن الــدور المحـدَّد للكتاب البشري الـذي يقدمه جهـد المؤمن . فللكتاب البشري الذي يقدّمه جهد المؤمن خصائص أساسية يجب أن تتوافر فيه ، ويجب على الـدعـاة المسلمين والكتـاب المسلمين أن يعـوا هـذه الخصـائص من ناحيـة ، وأن يعوا دور الكتـاب البشري ، حتى يؤدي الكتاب دوره بأمانة ودقة .

إن أهـم الخصائص التي يجب أن تتوافر في الكتاب البشري الذي يقدمه المؤمن يمكن إيجازه بما يلي :

أولاً : أن يكون نابعاً من منهاج الله مرتبطاً به خاضعاً له ، حجته وبيِّنته من منهاج الله ، لايستبدل بها حجة أُخرى مهما كان مصدرها ، مادامت الحجة متوافرة في منهاج الله .

ثانياً : أن يكون الكتاب منهجيّاً ، يعرض منهجاً محدداً ، أو يأخذ مكانه في منهج محدد ، يرتبط بما قبله من الكتب ويرتبط بما بعده .

ثالثاً : أن يدرس الواقع في مختلف الميادين دراسة نابعة من منهاج الله ، واضحة الحجة والنظرة والتحليل ، ولا يُستثنَى ميدان من ميادين التاريخ والواقع والحياة مع هذه الخصائص العامة الثلاث ، ومن خلالها يكون للكتاب البشريّ الذي يقدّمه الجهد المؤمن دور واضح ومهمة جلية ، يمكن إيجازه بما يلي :

أولاً : أن يذكّر الناس بما أمر الله به ، أو ببعض ماأمر الله به تذكيراً يحمل الخصائص السابقة ، تذكيراً منهجياً يحمل الحجة والبينة من منهاج الله .

ثانياً : أن يدفع الناس دفعاً إلى دراسة منهاج الله ليأخذوا

منه التصور والفكر ومعالم النهج وقواعده لجميع ميادين الحياة ونشاطها .

ثالثاً : أن يلحَّ إلحاحاً شديداً ويؤكد القاعدتين السابقتين ، ليربط الناس بربهم وخالقهم الله الذي لا إله إلا هو أولاً ، وبمنهاج الله ثانياً ، لا أن يربطهم بنفسه أولاً ، ولا بأولياء من دون الله ، ولا بأهواء ومصالح مادّية .

رابعاً : أن يدرس الواقع دراسة منهجيّة من خلال منهاج الله ، وأن يدرس أمراض الواقع على ضوء ذلك ، ويقدّم العلاج النابع من منهاج الله .

خامساً : أن يربط ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها من خلال دراسات منهجيّة ومن خلال منهاج الله . فإذا درس التاريخ درسه من خلال منهاج الله دون أن يخضع لأي عصبيات جاهلية برزت في التاريخ الإسلامي ، ودون أن يثبتها ودون أن يعيدها حيّة في حاضرنا . وكذلك يدرس الحاضر ويستشرف المستقبل ويخطط له ، وأن يردّ على أعداء الله في كل ميدان يخوضه .

سادساً : أن يقَدِّم المناهج التطبيقية المفصلة والنماذج التطبيقية التي تعين على تحقيق كل هدف من أهداف الدعوة الإسلامية .

سابعاً : أن يُقَدِّم الدراسات التفصيلية للوسائل والأساليب والمراحل والأهداف التي تلّبي حاجة الواقع ، وترسم الدرب مشرقاً بالإيمان والتوحيد ، مشرقاً بمنهاج الله .

ثامناً : أن يقدّم « **النماذج العمليّة** » بالإضافة إلى **المناهج التطبيقية** .

إن النهج العام للدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الإسلامية تمثلان محور الكتب التي نقدمها في الدعوة الإسلامية ، وحول هذا المحور تدور التفصيلات .

إننا نؤمن بأن مثل هذه الدراسات المنهجية حين تتكامل بين جهود الدعاة ، تنفي كثيراً من التنافس المريض الذي يشهده واقعنا . وكذلك فإنه يرسي القواعد المتينة للقاء المؤمنين من ناحية ، ولاتصال تجارب العمل الإسلامي وتواصله على مدار التاريخ ، حتى تجد الأجيالُ المؤمنةُ بين يديها زاداً نامياً متواصلاً متناسقاً ، لا زاداً مقطعاً متصارعاً .

ومهما تكن أَهداف الدعوة الإسلاميـة التي قدمنا لها دراسة خاصة مفصلة في كتاب لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف ، فهناك هدفان عامان رئيسان نلح عليهما ونريد أن تتعاون الجهود على تحقيقهما في واقع المؤمن والجماعة والأمة :

أولاً : النجاة من فتنة الدنيا بكل ألوانها وزخارفها وأهوائها وشهواتها ، حتى لاتدفعنا هـذه كلها إلى الانحراف والضلال . نـريد الثبـات على الحق ووضع النهج والتخطيط الـذي يساعـد على ذلك في واقع الحياة .

ثانيـاً : النجـاة من عـذاب الآخرة وأولـه عـذاب القبر . النجاة من ذلك كله برحمة الله وعفوه وغفـرانه . نريد ذلك ونريد وضع النهـج والتخطيط الــذي يعين على تحقيق ذلـك في واقع الحياة .

ومن أجل ذلـك ، ومن أجل تحقيق ســائر الأهــداف : الهدف الأكبر والأسمى والأهداف الثابتة ، والأهداف المرحلية ، من أجـل تحقيق ذلك وتحقيق الهدفين العــامين الســابقين ، هنالك هدف عام ضروري هو **«لقاء المؤمنين»** !

إن «**لقاء المؤمنين**» هدف مرحلي ضروري ، تعتمد سائر الأهداف على تحقيقه وقيامه . إن الصراع الدائر معصية وإثم لاتجلب رضاء الله سبحانه وتعالى . وإن إيذاء المسلمين بعضهم بعضا باب واسع لدخول أعداء الله إلى قلب الصف المؤمن ليمزّقوه ، وإن الالتقاء على عواطف وشعارات فحسب لقاء سرعان مايتمزّق ، وإن الالتقاء على أخطاء وأمراض هو زيادة للبلاء والنكبات والفواجع .

إن «**لقاء المؤمنين** » هو لقاء المؤمنين الصادقين الذين يريدون الدار الآخرة لا الدنيا . فالدار الآخرة لها درب ونهج ، والدنيا لها درب ونهج ، وهذان نهجان لايلتقيان .

فلقاء المؤمنين لايمكن أن يتمّ في واقع الحياة إلا على أسس ربانية جلية ثابتة لامراء ولا جدال فيها ولا حولها . من أجل ذلك يجب إلغاء القاعدة السابقة التي انتشرت كثيراً بين المسلمين فما زادتهم الا فرقة وخلافاً وصراعا :

« نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه »

إنها قاعدة مبهمة ينكشف اضطرابها في ميدان التنفيذ والواقع . وإن أخطر مافي هذه القاعدة أنها جعلت التعاون والاتفاق ، والاختلاف والتسامح فيه ، مرهوناً بالبشر ورغباتهم وما يَتَّفِقون عليه وما يختلفون . إن الله سبحانه وتعالى جعل للتعاون والاتفاق قواعد ربانية على المؤمنين أن يلتزموها ، وجعل للخلاف ميدانا مباحاً وميداناً حراما . ولذلك نضع قاعدة أخرى لتكون أساس التصور للتعاون أو الخلاف ، بدلاً من القاعدة السابقة :

«يجب أن نتعاون فيما أمرنا الله أن نتعاون فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا بالاختلاف فيه » .

ففي هذه القاعدة ارتبط أمر الاختلاف والاتفاق بما أمر الله به ، لا برغبات بشرية وروابط غير إيمانية ومصالح دنيوية تُغطَّى كلها بشعارات إسلامية ، تخدِّر دون أن نجد لها رصيداً حقيقياً في الواقع .

من أجل هذا كله كان «**النهج العام للدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الإسلامية**» . فالنظرية العامة جزء من النهج والتخطيط ، والنهج والتخطيط جزء كذلك من

النظرية العامة التي تدعو إليه وتلح به .

ويجب أن لاتكتفي **النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام والتخطيط** بطرح النظرية وعرضها في مقالة أو محاضرة . يجب أن يُرَافِق النظرية العامة وموجزَها دراسات تفصيلية لكل جزء منها ، دراسات تقدم المناهج والأساليب والوسائل لتيسير عملية الممارسة والتطبيق على المسلم ، ودراسات تقدّم مع المناهج نماذج تطبيقية توضح المناهج وتوضح النظرية ، حتى ينجلي صدق النظرية أو خطؤها ، وحتى تتوافر عناصر النموّ الحقيقي للجهد البشري في ميدان العمل الاسلامي ، إذا رافق ذلك كله صدق النيّة وإخلاص التوجّه إلى الله ، حتى يكون العمل كله جزءاً من النيّة وتصورها ، فتمضي النيّة الصادقة مصاحبة لكل خطوة ، نقيّة من الهوى ، نقيّة من الغفلة ، قوية بالإيمان والعلم والوعي ، ماضية على صراط مستقيم حدَّده الله لعباده رحمة منه ، وبيَّنَه لهم ، وكلفهم بالانطلاق عليه في كل واقع جديد يتلمسون معالمه بنور الإيمان والحق .

لذلك فإننا نقدّم في سلسلة «**كتب الدعوة الإسلامية**» «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» **والنهج العام** لها ، **والمناهج التطبيقية والنماذج التطبيقية** في ميادين العمل الإسلامي : ميدان الدعوة والبلاغ ، ميدان التربية والبناء ، ميدان التدريب ، ميدان الأدب ، ميادين دراسة الواقع ، وغير ذلك . وتظل الميادين تتفتَّح أمام الدعوة الإسلامية ، وتظل النظرية العامة تنمو بنمو الميادين وتفتحها .

وحين نقدّم هذه النظرية العامة والنهج العام والمناهج والنماذج ، فإننا نقدمها بدراسات مفصّلة لتكون بين أيدي جميع المسلمين فتيانهم وشبابهم ودعاتهم وعلمائهم ، وبين أيدي الحركات الإسلامية ، ليُدرَس هذا كله ، وليكون أساسا للقاء المؤمنين ، ولقاء القلوب الصادقة مع ربها ، والجهود الخالصة لله ، والعزائم المشدودة بالتقوى وحب الآخرة .

ولابد أن نؤكد أن كتاباً واحداً أو كتابين أو أكثر لايكفي لبيان حقيقة النظرية العامة للدعوة الإسلامية ونهجها العام ، ولبيان تكاملها وتناسُقها . إن هذا يبدو ويتضح بترابط الكتب والدراسات التي نقدّمها ، وبتكاملها .

* * *

لابد أن نؤكد نقاطاً نراها هامة تحتاج إلى إعادة وتكرار ، ونصح وتذكير ، ننصح بها أنفسنا أولاً لنجاهد في أنفسنا ، ثم ننصح الآخرين :

١ – إن مايصيبنا من فواجع ومجازر هو بقضاء الله وقدره ، وقضاء الله حق . والله لايظلم أبداً . فما يصيبنا إذن هو بما كسبت أيدينا .

٢ – لذلك علينا جميعا ، على كل مسلم يريد النجاة ، وعلى كل حركة إسلامية تريد النصر ، علينا جميعاً أن نقف مع أنفسنا ومناهجنا ونظرياتنا وأعمالنا وقفة إيمان ومراجعة وحساب ، وقفة دراسة وتقويم ، لنحدِّد أخطاءنا بوضوح وجلاء ، دون كبر واستعلاء ، ولنضع وسائل العلاج . إن الخطر أصبح زاحفاً كالإعصار المدمر ، ولكنّ النجاة والنصر قريبان بإذن الله ، إذا صدقت وقفة الإيمان والعلاج والتوبة إلى الله ، فالنصر وعد الله لعباده المؤمنين إذا صدقوا وأوفوا بعهدهم مع الله .

٣ - إن أهم شرط للــوفـاء بعهــد الله هـو لقـــاء المؤمنين الصادقين ، وإزالـة الفرقـة التي مزّقتنا . لقـد كانت كل حـركة تـرى أنها وحدهـا ستقـود الأُمـة للنصر والنجاة ، وأخـذت كل حركة فـرصتها ومدتها ، ووصلنا بعـد الجهود الطويلة إلى مـانراه من شتات وذلـة وهوان . واليوم لاتستطيع أي جبهـة أن تدّعي ماكـانت تدعيه سابقـا من أنها قادرة وحدهـا على أن تقف أمام جبهـة أعداء الله الـذين التقوا صفّـاً واحداً في كيـدهم للإسـلام والمسلمين . فـلا بد اليـوم ، من أجل الـوفـاء بالعهـد مع الله ، ومن أجل الاقتراب مـن النصر والنجـاة ، أن تلتقي القلـــوب والعزائم في أمّة مسلمة واحدة كالبنيان المرصوص كما أمر الله .

٤ - ولايفيد اللقاء إذا كان لقـاء إداريا شكليا يجمع ممثلين على غرار المنطق الـديمقراطي . إن الذي نحتـاجه اليوم هـو لقاء نهج محدد يطرح قـواعد ربـانيّة ليـس لأحد أن يخرج عنهـا ، لقاء إيمان ويقين ، وعقيـدة وعهـد . وبعد ذلك تبرز وسـائل اللقـاء وأشكـالـه . لانـريـد من اللقـــاء أن نجمع مـرضـاً إلى مـرض ، وخلافـات إلى خلافات . إننـا نريد أن نخضع لما يأمـر به الله من لقاء على سبيل واحـدة وأهداف واحدة ووسـائل واحدة على درب ممتد إلى الجنـة : **﴿قل هذه سبيلي أدعـو إلى الله على بصيرة أنا ومن**

اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

٥ - وحين نقدّم «النهج المحدَّد بكل تفصيلاته ، ونقدم «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » ، فذلك من أجل أن يكون هذا النهج قاعدة لقاء المؤمنين وأساسه . فإما أن يكون النهج حقّاً فليتبعه الجميع ، وإما أن يثبت بطلانه بالحجة والبيّنة من منهاج الله فلنتركه كلنا ، وإما أن يكون فيه باطل وفيه حق ، ويثبُت هذا أو ذاك بالحجة من منهاج الله ، فلنترك الباطل ولنأخذ الحق ، وإما أن يكون هنالك نهج أصح وأكثر خيراً فقدموه كما نقدم هذا النهج . إننا نبحث عن الحق ونسعى إليه وندعو إليه . والحق في منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية . وعلى أساس من منهاج الله والواقع يقوم النهج والتخطيط ، والنظرية والمناهج والنماذج .

فعلى ضوء ماعرضناه في الصفحات السابقة ، فمن أهمّ القضايا التي يجب أن نثيرها بالنسبة لواقع المسلمين اليوم ، وبالنسبة للنهج والتخطيط وبالنسبة للمعالجة والإصلاح ، ورفع الخدر والغفوة : «**المسؤولية الفردية** » : ماهي أسسها ، وما هي تكاليفها ، وما هو تميّزها ؟!

الفصل الثانـي
جوهر المسؤولية الفردية ومَحورها والأسس التي تقوم عليها

١ - «الأمــانــة» التي حملهــا الإنســان هي محور المسؤولية والحقوق والواجبات :

لماذا نطرح قضيـة المسؤولية الفـردية اليوم ؟! نطـرحها لأن صـورتها اضطــربت في أذهـان الكثيرين تحت ضغـط الأفكـار المتنــاقضـة الــوافــدة ، ولأن الملايين من المسلمين تخلّــوا عن مسؤوليـاتهم الفرديـة وأصبحوا مـرتعاً خصبـاً لأعداء الله . ولأن حقوق الإنسان التي تطالب بها هيئات كثيرة عزلت هذه الحقوق عن المســؤوليات . **والحقوق والمسئوليات مترابطة** لايمكن فصل بعضها عن بعض إذا أردنـا حياة متوازنة سليمـة للإنسان فلا يستطيع الإنسان أن يـوفي بمسؤولياته إذا جُـرِّد من حقوقه ، ولايستطيع أن يستوفي حقوقه إذا أضاع مسؤولياته .

إن جميع حقـوق الإنسان ومســؤوليـاته تنطلـق من قاعـدة

رئيسة يقررها الإسلام ، ليميز بها الإنسان عن سائر مخلوقات الله .
تلك القاعدة هي أن الإنسان يحمل أمانة في هذه الحياة الدنيا لايحملها غيره من المخلوقات :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

ونعتقد أن هذه «**الأمانة**» هي ممارسة منهاج الله في واقع حياة الإنسان على الأرض . وحين يحمل الإنسان هذه «الأمانة» ويمضي بها في الحياة الدنيا يتوب الله عليه ويغفر له ، فهو من المؤمنين والمؤمنات . أما إذا ترك هذه «الأمانة» وتخلّى عنها فيكون ظلوماً جهولاً . إنه جاهل بعظمة هذه الأمانة ، ظالم لنفسه بتركها وظالم لغيره .

لذلك وهب الله الإنسان كل مايلزمه لحمل هذه الأمانة ،

فَتَميَّزَ ببعض ذلك عن سائر المخلوقات ، كما تميّز منها «**بالأمانة**» التي يحملهـا . ومن أهم ذلك السمع والبصر والفؤاد ، لتكـون المنافـذ التي يستقبل بها آيـات الله المبثوثة في الكـون ، ويستقبل بلاغ الأنبياء والرسل ، ولتظلّ فطـرته تتلّقى النّور الفيّاض الذي يغسلها ، ويحافـظ على توازنها ، فيعي الإنسـان حقيقة الأمـانة التي يحملها ، فيؤمن بها ويمضي للوفاء بها :

﴿ قل هو الـذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون ﴾ [الملك : ٢٣]

وحين تتعطل هذه القوى عـن أداء مهمتها ، وتنغلق هذه المنافذ ويتوقف استقبالها للنور من آيات الله ومن بلاغ الأنبياء ، يهبط الإنســان إلى درك الأنعام بل إلى أضلّ من ذلك ، في غفلـة وضياع وظلام :

﴿ ولقـد ذرأنــا لجهنـم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلـوب لايفقهـون بها ولهم أعينٌ لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعـون بها أولئـك كـالأنعـام بل هـم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وتمضي الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة توضح قضية الإنسان ومهمته في الحياة الدنيا ومسؤولياته فيها . وإذا تدبّرنا منهاج الله فإننا نجد أن منهاج الله عبَّر عن مهمّة الإنسان ودوره في هذه الحياة الدنيا بأربعة ألفاظ ، كلٌّ منها يدلّ على نفس المهمة والدور والمسؤولية ، ولكن بظلال مختلفة . وهذه الألفاظ أو الكلمات هي : **العبادة ، الأمانة ، الخلافة ، العمارة** . ويُفصِّل منهاج الله المهمة كلها وظلالها .

ثم يؤكد منهاج الله أن هذه المهمة والمسؤولية وظلالها المختلفة التي تمدّها الكلمات الأربع ، يمضي بها الإنسان من خلال سنّة الابتلاء التي كتبها الله على الإنسان ، ليمحّصه وهو أعلم به ، ولتقوم عليه الحجة يوم القيامة أو تقوم له .

ويؤكد منهاج الله أن هذه الأمانة والعبادة والخلافة والعمارة تتمثّل بتكاليف ربّانيّة مفصّلة بيَّنها منهاج الله ، وبيّن أن هذه التكاليف تُمثِّل الصراطَ المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه ، وأن هذا الصراط المستقيم هو سبيل الله ولا سبيل للمؤمنين سواه .

٢ - حقوق الإنسان منحة من الله ونعمة منه وليست منّة من البشر : [١]

فالإسلام ، وهو دين الله ورسالته إلى خلقه وعباده ، حمله الأنبياء والمرسلون الذين خُتموا بمحمد ﷺ وبلّغوه وبيّنوه ليعالجوا به مشكلات الإنسان على الأرض ، وليدعوا الناس إلى الحق من عند الله لينجوا من عذاب الله في الآخرة ، وليستقيموا على أمر الله فيسعدوا في الدنيا ويأمنوا ، ويقوم بينهم ميزان العدل والأمن والحرية ، ميزاناً أميناً لايقف عند الشعارات ، وليعيدوا إلى الإنسان حقوقه التي سلبها المجرمون في الأرض ، والتي شرعها الله رب العالمين .

يارسول الهدى حملت إلى النا س سلاماً يرعاه دينٌ وصيدُ
أنت أرجعت لابن آدم حقّاً كم أضاعته فتنة وجحودُ
وعتاة بغوا على الناس حتى تاه في الدرب جائع وطريدُ

(١) يراجع كتاب : «المسلمون بين العَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعيّة ، للمؤلف : الباب الخامس : (من : ٢٤١-٢٩٦) . وكتاب : «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الإنتماء الصادق إلى الإسلام » للمؤلف : الباب الثالث .

يا حقوق الإنسان ! هذا هو الحقُّ ! سواه فباطل مردود
إنها مِنحةٌ من الله حقٌّ		لم تُشرِّعه عصبة وعبيدُ (١)

* * *

وحملت الأُمة المسلمة بعد النبوّة الخاتمة رسالة الله إلى عباده ، لتمضي بها في الأرض ممتدّة مع الزمن جهاداً ووفاءً بهذه الأمانة العظيمة .

وكان الإنسان وصلاحه ، حقوقه ومسؤولياته وواجباته ، لقاؤه وفراقه ، تعاونه وخصامه ، محور هذه الرسالة الربّانية العظيمة ، ليكون الإنسان عبداً صالحاً لله رب العالمين .

لايعقل أن تكون حقوق الإنسان في الأرض ، في الحياة الدنيا ، منحة من إنسان أو هيئة أو سلطان ، أو ثمرة فلسفة بشرية يصوغها الإنسان من خلال ضعفه وجهله وكبره وغروره .

إن حقوق الإنسان نعمة من الله عليه ، ومنحة منه له ، ورحمة من رب العالمين ، من الله الذي لاإله إلا هو له الأسماء

---

(١) من ملحمة الأقصى للمؤلف – (ط : ٢) .

الحسنى كلها ، شرعها الله للناس جميعاً ، على مختلف المستويات والقدرات والمواهب ، حتى لايتمايز الناس في ميزان الله بالأنساب والدم وأشباه ذلك ، ولكن يتمايزون بالوسع والموهبة والقدرات ، بالكفاءة والبذل والعطاء ، والتنافس في ميدان الحق والصلاح في سبيل الله ، حين يضمّ ذلك كله التقوى الجامعة في ميادين الحياة كلها ﴿ .. **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : ١٣]

٣ - الحق الأول للإنسان : حماية فطرته ، وهو الحق الذي أهملته النظم البشرية : [١]

لقد كان من أهم ماعالجته رسالة الإسلام أخطر قضية في حقوق الإنسان ، وأول حق من حقوقه . إنه ذلك الحق الذي أهملته شرائع الناس ، وأهملته لجان حقوق الإنسان وجمعياتها وهيئاتها ، وقتلته وأخفته في طيات الشعارات والزخارف ، ودويّ الفتنة والفساد .

(١) يراجع كتاب : «المسلمون بين العَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعيّة ، الباب الخامس – الفصل الخامس – من أجل تفصيلات موسّعة عن هذا الحق الأكبر للإنسان . وكذلك كتاب «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام» للمؤلف : الباب الثالث – الفصل الرابع .

إن هذا الحق الأول للإنسان هو حماية فطرته التي فطره الله عليها ، والتي أودعها برحمته الإيمان والتوحيد ، وسائر الطاقات والميول ، لتعمل هذه الطاقات متصلة بالإيمان والتوحيد مرويّة من نبعه الغنيّ ، وليكون عمل الإنسان بعد ذلك عملاً صالحاً . أما إذا انعزل العمل عن هذا النبع أو جفّ النبع فلم يروه فيكون العمل فتنة وفساداً .

لذلك نرى أن الفلسفات التي أقامت نظمها في مختلف أنحاء الأرض ، لم تولِ قضية حماية فطرة الإنسان التي فطره الله عليها عناية ، ولم تحرص على توفير الجو الذي يحتضنها . بل على العكس من ذلك شوّهت الفطرة وآذتها وأفسدتها حين قطعت عنها ريَّ الإيمان والتوحيد ، وأحاطتها بالفتنة والفجور ، وألهبتها بالشهوات والأهواء ، وخدرتها بالسكر والخمور ، أو أفسدتها بالرعب والإذلال ، والخنق والأغلال ، حتى انحرف السلوك ، وتاهت الكلمة أو اختفت .

إن هذا الحق الأول للإنسان هام وضروريّ . فمن خلاله يستطيع الإنسان أن يجابه الخطر لينجيه الله بفضله ورحمته وعونه ،

فأمــام الإنســان خطـران حقيقيــان لا وهم فيهما ولايملك أن يتجاهلهما إلا غاف أو تائه . هذا الخطران هما :

الأول : فتنة الـدنيا بزينتها وزخـرفها ، ومصائبها ومـا كتبه الله فيها من ابتلاء حقٍّ على الإنسان .

الثـاني : بعـد النـزول إلى القبر والـدخـول في عـالم الغيب وحيداً منفـرداً ، ليلقى حالاً جديـداً ، وليلقى بعد ذلك البعث والحساب ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

سلامـة الفطرة وحمايتهـا هي البـاب الأول للنجاة في الـدنيا والآخرة . فهي السلاح الأول في الحياة الـدنيا أمام الفتننة ، وهي المنفـذ والـدرب إلى الخير والصلاح ، والنـور واليقين . وبـذلك تصبح هي الحق الأول للإنســان ، وواجب القوى كلها أن تـوفّر هذه الحماية لها : إنها واجب الوالدين أولاً والأسرة وأجواء البيت ، وواجب المعــاهـد والمؤسســات ، وواجب الإعــلام ، وواجب العلماء والدعـاة وأولي الأمر ، وواجب اللجان والهيئات القـومية والدوليـة ، وواجب القـوى كلها أن تـوفّر «الحضـانة» الطـاهرة الأمينة للفطرة .

إن حماية الفطرة ورعايتها لتوفير سلامتها تمثل القاعدة الأولى التي تقوم عليها نظرية التربية الإيمانية ، في تربية الأطفال ورعايتهم وحمايتهم ، وتربية الفتيان والفتيات والشباب والشابات ، وبناء الأجيال المؤمنة الصالحة الظاهرة في الأرض رجالاً ونساء .

إنها محور التربية الإيمانية الإسلامية ومدارها : ولا بد أن تثبت هذه الحقيقة الهامة في قلوب الدعاة والعلماء والحركات ، وفي المعاهد وكل من يلي أمراً من أمور التربية والبناء للأطفال خاصة وللأجيال كلها عامة في الساحة الإسلامية ، فكلهم محاسَبون يوم القيامة عن ذلك بين يدي العزيز الجبّار .

هذه هي القضية الأولى التي تقوم عليها سائر حقوق الإنسان ، وتنطلق منها ، وتُبنى عليها المسؤوليات كلها من حقوق وواجبات . فإذا سلمت الفطرة واستقامت على أمر الله نجا الإنسان والمجتمع والأمة ، وتوازنت الحقوق والواجبات ، وأصبح الإنسان قادراً على استقبال رسالة الله ، ووعي مسؤولياته وتكاليفه وحقوقه كما شرعها الله لعباده في أمرهم كله .

٤ - الأسس التي تحدّد بها مسؤوليات المسلم : واجباته وحقوقه :

تتحدَّد مسؤولية المسلم في واقع الحياة الدنيا على أسس أربعة ، تتوازن من خلالها الحقوق والواجبات :

أ - **المنهاج الربّاني** : فالمنهاج الرباني يحدّد التكاليف الربانيّة من تفكير وتدبر ، واتخاذ قرار ، وإيمان وتوحيد ، والشهادتين ، والشعائر ، وتدبُّر لمنهاج الله ، والدعوة إلى الله ورسوله ، وغير ذلك من تكاليف مفصّلة يحاسَب عليها المسلم يوم القيامة ، مما لايمكن تفصيله وعرضه هنا . وهذه التكاليف منها فرائض ، على كل مسلم أن يقوم بها إلا من كان له عذر شرعيّ ، كالمرض الذي يمنع عن الجهاد في سبيل الله ، ومنها مايتحدّد على ضوء الأساس الثاني والثالث لتحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات . والمنهاج الربانيّ هو الركن الأول في النظرية العامة .

ب - **الوسع** : إن التكاليف الربانية هي في حدود وسع الإنسان عامة . ولكن يضيق الوسع أحياناً في بعض الناس ، فيترك بعض الفرائض ، ويأخذ ببعض السنن والنوافل مما هو أقرب لهواه .

وتتوالى الآيات والأحاديث في المنهاج الرباني لتبيّن هذه القاعدة الهامة وهي الوسع الصادق للإنسان ، الوسع الذي وهبه الله له ، والذي سيحاسبه عليه يوم القيامة . ونكتفي هنا بذكر آية وحديث ، ليعود المسلم إلى منهاج الله فيأخذ الصورة بتكاملها :

﴿ ولانكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون ﴾ [المؤمنون : ٦٢]

نعم ! لايُظلَم أحد أبداً . فالله أعلم بوسع كل إنسان ، وأعلم بما وضع عليه من تكاليف يحاسَب عليها ، وأعلم بما عمل وبذل ، وبأي نيّة بذل وعمل ، وعلى أي نهج سار .

وعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم وإذا نهيتكم عنه فاجتنبوه**» [رواه الشيخان] (١)

والذي نودّ أن نؤكده هنا ماسبق شرحه حول قضية الوسع

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الحشر ، حيث جاء قوله : وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الحديث أعلاه» مجلد (٤) - طبعة دار المعرفة بيروت - [ص : ٣٣٦]

في كتب أُخــرى من كتب الـدعــوة ، ألا وهي قضيـة الــوسع الصادق والوسع الكـاذب . فالوسع الصادق هـو الوسع الذي وهبه الله للإنسان والذي سيحاسبـه عليه . وأما الوسع الكاذب فهو الـذي يدّعيـه الإنسان لنفسـه ليسوّغ تقصيره وعـدم قيامـه ببعض التكاليف الربانيـة دون عذر شرعي مقبول . ولقد فصلنا في هذا الموضـوع في كتاب : «النظرية العـامة للدعوة الإسـلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء » .

ج - **النظام الإداري والخطـة والنهج** الذي تضعه الطـاقة البشرية المؤمنة على أسـاس من المنهاج الربّاني والـواقع ، والذي يبين تحديد الصـلاحيات والمسؤوليـات في كل مستوى إداريّ في الأمـة . ويستمد هـذا الأساس شرعيتـه من أنـه قائم فعـلاً على منهاج الله ، نـابع منه ، مـرتبط به ، خـاضع له ، ومن أنـه مع هذه الخصائص يلبي حاجة الـواقع للمؤمنين . ففي هذا النظام الإداري ، أو الخطـــة والنهج ، يجب أن تُحدَّد بشكـل واضح صـلاحيـات كل مستـوى ومسـؤولياتـه ، وأن تتحـدَّد أشكـال المراقبـة والإشراف والتـوجيــه والمتـابعــة . ويــدخل في ذلك

التكاليف أو التعليمات الصادرة في أي مستوى من مستويات النظام الإداري ، التي تكون نابعة من الأسس الثلاثة السابقة ، مرتبطة بها خاضعة لها بصورة جلية .

د - الواقع : الواقع هو الركن الثاني في «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » . وهو يؤثر كثيراً في مفهوم الوسع ، وفي النظام الإداري والخطة والنهج ، والتعليمات والتكاليف الصادرة عن ذلك ، ويكون هذا الدور للواقع في تحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات بصورة متوازنة عندما يُدرَس الواقع ويُفهمَ من خلال المنهاج الرباني .

إنَّ الأُسس الثلاثة الأخيرة يجب أن تكون مرتبطة بالمنهاج الرباني نابعة منه خاضعة له ، حتى تتوافر الموازنة الأمينة بين الحقوق والواجبات . وبمقدار ماتصدق الطاقة البشرية في إيمانها وعلمها وخبرتها يصدق النظام الإداري والنهج والخطة والتعليمات ، ويصدق النمو والتطور في الجهد البشري في ساحة الإيمان والتوحيد .



المسؤوليات والتكاليف الرّبانية على الإنسان

الباب الثاني
المسؤوليات والتكاليف الربّانية
على الإنسان

١ - المسؤولية الأُولى والتكليف الأوّل على الإنسان التفكير المنهجي الذي يقود إلى الإيمان :

إن أول المسؤوليات والتكاليف التي عليه من الله هي التفكير والتأمُّل والتدبُّر حتى يؤمن . فإذا كانت «**حماية الفطرة التي فطر الله الناس عليها**» هي الحق الأول والأخطر للإنسان ، فإن أول واجب عليه وأول تكليف ربّاني أن **يفكر ويتأمل ويتدبّر** ، وأن ينظر في نفسه وفي السموات والأرض وفي مسيرة التاريخ ، استجابة للفطرة التي فطره الله عليها . وقد وفَّر الله سبحانه وتعالى للإنسان جميع وسائل التفكير الإيماني المنهجي . وفّر له السمع والبصر والفؤاد ، ووهب له الفطرة السوية السليمة ، وبثَّ آياته في الكون كله ، وبعث الأنبياء والرسل حتى لايكون للناس على الله حجّة بعد الرسل .

إن هذا التكليف الأَول للإنسان بـالتفكير والتأمل والتدبر تفكيراً يؤدِّي بصاحبه إلى الإيمان والتوحيد :

﴿ قل إنما أعظكم بــواحــدة أن تقــومــوا لله مثنى وفرادي ثمَّ تتفكَّـروا مابصاحبكم من جنَّة إن هـو إلانذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [سبأ : ٤٦]

وكذلك :

﴿ إن في خلق السمــوات والأرض واختــــلاف الليل والنهار لآيـات لأولي الألباب * الـذين يـذكرون الله قيـاماً وقعـــوداً وعلى جنـــوبهم ويتفكَّــرون في خلق السماوات والأرض ربنــــا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١]

هذه هي المسؤولية الأولى : « أن تقوموا لله . . » استجابة للفطـرة ، ثم تتفكـروا وتنظروا ، ثـم تستمعوا إلى دعـوة الـرسل الذين ختموا بمحمد ﷺ .

وكذلك :

﴿وفي الأرض آيــاتٌ للمــوقنين . وفي أنفسكم أفــلا تبصرون * وفي السماء رزقكم ومـا تــوعـدون * فـورب السماء والأرض إنــه لحق مثل مــاأنكم تنطقــون﴾ [الذاريات : ٢٠-٢٣]

وكذلك :

﴿ قل انظـروا مـاذا في السمـوات والأرض ومـا تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾ [يونس : ١٠١]

وكذلك :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلـون بها أو آذان يسمعـون بها فإنها لاتعمـى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦]

وضرب الله لنــــا أمثلـــة كثيرة ونماذج مـن منهج التفكير الإيماني . فهذا إبـراهيم عليه السلام ينظر في ملكـوت السموات والأرض يتأمل ويتفكر استجابة للفطرة السليمة :

﴿ وكـذلك نـري إبراهيم ملكـوت السمـوات والأرض

وليكون من الموقنين . فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هـذا ربي فلمّا أفل قال لا أحبُّ الآفلين . فلمّا رأى القمر بازغاً قال هـذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هـذا ربي هذا أكبر فلمَّا أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون . إني وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : ٧٥-٧٩]

هكذا نظر إبراهيم عليه السلام في ملكوت السموات والأرض ، يتأمل ويتفكر في صفاء وصدق . ويضرب لنا القرآن الكريم نماذج من وقفات إبراهيم عليه السلام ، ومن نظره وتأمّله وتدبّره في ملكوت السموات والأرض ، وكيف كان نهج تفكيره نهجاً إيمانياً انتهى به إلى القرار ، إلى إعلان إيمانه .

ويضرب لنا القرآن الكريم مثلاً آخر بمؤمن آل فرعون في سورة غافر ، وهو يواجه موقفاً خطيراً حين دعا فرعون إلى قتل موسى عليه السلام . فتصدى رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه ليدافع عن موسى عليه السلام ويدعو قومه إلى الإيمان :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وان يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب* ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فممن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ماأريكم إلا ماأرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر : ٢٨، ٢٩]

ثم يعرض هذا الرجل المؤمن نهج تفكيره والأسس التي يقوم عليها نابعة من الفطرة السليمة :

﴿ وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار * من عمل سيئة فلا يُجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب * ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار *

لاجرَم أنّما تـدعونني إليه ليـس له دعوة في الـدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنـا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴿ فستذكرون ماأقـول لكم وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ [غافر : ٣٨-٤٤]

وفي الحوار بين الـرسل وأقـوامهم نماذج من التفكير الإيمانيّ لـدى الرسل ومن تبعهـم ، ونماذج من التفكير المضطرب لـدى الكافـرين . وفي حياة الصحابـة رضي الله عنهم نماذج أخرى . فسلمان الفارسي رضي الله عنـه طوّف في الأرض يبحث عن الحق . يستمع إلى هـذا وذاك ، ويفكر ويتأمل ويتـدبّر ، حتى جـاء المدينة ورأى الرسول ﷺ فهداه الله .

ونجـد في الكتـاب والسنة الإلحاح على الإنسـان بـالتفكير وبالتأمل والتدبّر .

وهذه المسؤولية ممتـدّة مع الإنسان لاتتوقف حتى يوارى في قبره . ويظل الإنسـان يتحمل مسـؤوليّـة تفكيره ، ومسـؤوليـة مايصاحب التفكير من نيّة وعزيمة .

إن منهج التفكير الإيماني يتميّز أولاً بالنيّة الصادقة عند الإنسان والعزيمة الأكيدة للبحث عن الحق . لايعصف به الهوى ولاتجرفه المصالح فتحرفه عن النهج السليم .

ويتميّز كذلك بأنه نابع من الفطرة السليمة قبل أن تتشوّه ، مرتبط بها وبالقوى العاملة فيها ارتباط توزان وعدالة .

٢ - المسؤوليّة الثانية أن يتخذ قراراً ويتحمّل مسؤولية قراره :

هذه هي المسئوليّة الثانية على الإنسان ، وهي مرتبطة بالمسؤولية الأولى : مسؤوليّة التفكير والتأمّل والتدبر . فعلى الإنسان أن يتخذ قراراً نتيجة لتفكيره وتأمله : هل يؤمن أم يكفر ؟ فإن اتخذ قراراً بالإيمان والتوحيد ، فذلك استجابة لفطرته السليمة التي فطره الله عليها وغرس فيها الإيمان والتوحيد ، وذلك بهداية الله له . وإن كان غير ذلك فهو استجابة لفطرة غير سليمة ولا سويّة ، واستجابة لهوى ضالٍّ سيطر على فكره وقلبه ، فأضلّه الله بما كسبت يداه . والله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء على حكمة بالغة وقضاء نافذ وقدر

غالب . والله يقضي بالحق فلا يظلم أبداً ، فقضاؤه حقٌّ فيمن فكر واهتدى ، وقضاؤه حقٌّ فيمن ضل وكفر . وكان من قضاء الله وقدره أن يتحمّل الإنسان نتيجة قراره :

﴿ وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً * أولئك لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار يحلَّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾
[الكهف : ٢٩-٣١]

نعم ! هذه هي سنّة الله التي سنّها لعباده ، والتكليف الذي قضى به . إنه : **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...﴾** !

إنها مسؤولية اتخاذ القرار بعد التفكّر والتدبر . ثم تأتي بعد

ذلك مسؤولية تحمّل نتيجة القرار الذي يتخذه . فالمؤمن نتيجة قراره الجنّة في الآخرة وعون الله في الدنيا . والكافر نتيجته جهنم ، نارٌ يحيط بهم سرادقها في عذاب دائم .

المؤمنون من مسؤولياتهم ، كما سنذكر بعد قليل ، أن يبلّغوا الناس رسالة الله كما بلغها محمد ﷺ : ﴿**وقل الحقُّ من ربكم ...**﴾ . والناس يستمعون إلى هذه الدعوة ويُفكِّرون ، ويتخذ كل إنسان قراره ويتحمل مسؤولية قراره . فلا إكراه في الدين . يجب أن يكون الإيمان ذاتياً ، نابعاً من فطرة الإنسان وقناعته ، متحملاً مسؤولية ذلك :

﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة : ٢٥٦ ، ٢٥٧]

يجب أن يكون الإيمان نابعاً من أعماق الإنسان ، فلا يفيد

المكـر والخداع والنفـاق ، فإن الله مطّلع على مافي القلـوب ومـا ضمته الصدور :

﴿ لله مـافي السمـوات ومافي الأرض وإن تبـدوا مـافي أنفسكم أو تخفـوه يُحاسبْكم بـه الله فيغفـر لمن يشـاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٨٤]

﴿ قل إن تخفـوا مـافي صدوركم أو تبـدوه يعلمْـه الله ويعلم مافي السموات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران : ٢٩]

لكل قرار يتخـذه الإنسان نتيجة ومصير ، ونهايـة ومآل ، لاحجة للإنسان بعـد ذلك أبداً ، حين يأتيه الموت ، وينكشف الغطاء ، ويرى الحق الذي دعي إليه فأنكره وكفر به :

﴿ حتى إذا جـاء أحـدهم الموت قـال رب ارجعـون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠]

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقـالوا ياليتنا نردّ ولا

نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ [الأنعام : ٢٧]

هنا تطوى الفلسفات التي اغترّ بها هؤلاء فأهلكتهم . فرحوا بها في الحياة الدنيا حتى انكشف أمرهم وقامت عليهم الحجة ، وَحقَّتْ عليهم كلمة ربّك أنهم أصبحوا بفسقهم أصحاب النار .

٣ - المسؤوليّة الثالثة للإنسان المؤمن : الشهادتان :

إن فكّر الإنسان وتأمل وتدبّر ، فاهتدى وآمن واتخذ قراره بذلك ، فتصبح مسؤوليّته بعد ذلك أن يعلن إيمانه وذلك بالشهادتين يعلنها واضحتين صريحتين :

« أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله »

يعلنها المؤمن مدوّيتين في أعماق الزمان وفي أعماق الإنسان وفي آفاق الكون ، ليكون الإيمان عملاً جليّاً مشرقاً لايعتوره لبس ولا غموض . ويستثنى من ذلك طبعاً الحالات الخاصة التي قد يأذن فيها الإسلام بكتمان الإيمان فترة لاتدوم .

يجب أن يعلن المؤمن هاتين الشهادتين لتكونا العلامة التي

يعرفه الناس بها ، والسمة البارزة فيه ، وليشهدوا عليه بها في الدنيا والآخرة .

إن اللحظة التي يعلن فيها المؤمن إيمانه لحظة فريدة في مسيرة الإنسان . إنها تمثل النُّقلة الواسعة الهائلة في حياته ، حين ينتقل بها من الجاهلية إلى الإيمان ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد والأوثان والشهوات إلى عبادة الله الذي لاإله إلا هو .

هذه اللحظة الفاصلة في حياة المؤمن الصادق ، لاتكون فاصلة في حياة المنافق الذي نطق لسانه وما آمن قلبه . إن المنافق يحسب أنه قادر على أن يخدع الله وأنّى له ذلك . إنها لحظة آنيّة ولنسُمِّ الإسلام حينئذ إسلاماً آنياً ، لانملك نحن المسلمين المؤمنين إلا أن نقبل هذا الإعلان وهذا الإسلام «**الآنيّ**» . ولانملك نحن البشر أن نتَّهم من نطق بالشهادتين أنه كاذبٌ لحظة نطقه بهما . فالله وحده يعلم مافي نفسه وصدره . ولكننا في الوقت نفسه نملك أن نطالبه بالوفاء بحقوق الشهادتين وشروط الإيمان نطالبه بالوفاء بذلك في الدنيا . فإن قام بذلك كان أمره إلى الله وحسابه عند الله ، ويظلّ المؤمن مع المؤمن

يُذكِّر ويعين وينصح ، ويمضي المؤمنون على الوفاء بحق الشهادتين .

أما إذا نطق بالشهادتين واكتفى بهما وأبى أن يؤدي الشعائر وأن ينهض إلى التكاليف الربانية ، فلا نملك أن نُقرَّه على ذلك ، فنذكِّره وننصحه ، فإن أبى وأصرّ على عدم الوفاء بحق الشهادتين ، فلا نملك أن نحكم له بالإسلام ولا بالإيمان ، وتطبّقُ عليه أَحكام الإسلام وشريعته وحسابه عند الله .

إنَّ حُكْمَنا عليه حكم في الدنيا ، لأننا مكلفون أن نطبّق شرع الله على ظاهر مانرى والله أعلم بالسرائر . والله يحكم بين عباده يوم القيامة ويفصل بينهم فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء .

إن إعلان الشهادتين إعلاناً جلياً أمر في غاية الأهمية في حياة المؤمنين ، فعلى أساس هذا الإعلان نستطيع أن نحاسب المسلم ونطبق عليه أحكام الإسلام وشرع الله ، ونطالبه بالوفاء بما نطق وأعلن .

إن بعض الناس يَتوهَّمون أَنهم تكفيهم الشهـادتان ليصبحوا مسلمين ، دون أن يُطـالَبوا بـالوفـاء بحقـوق الشهادتين والتـزام قواعد الإيمان والتوحيد . إن هـذا وهمٌ قاتل . فالإسلام لا يأذن للمسلمين أن يُقِرُّوا أحداً على تـرك الشعائر والتخّلف عن سائر التكاليف الـرّبانيـة التي تؤلّف كلهـا درباً ممتـدّاً إلى الجنّة فمن تـوقَّف عنـد الشهادتين ولم يمض على الـدرب فأنَّى لـه أن يبلغ الجنّـة . ولكننا نظل نقـول إننـا نطبّق عليه شرع الله وحكمـه في تخلفه وعدم وفائه في الدنيا ، وحسابه يوم القيامة عند الله .

إن من أهـم أسبـاب هـذا الـوهم لـدى بعض النـاس أنهم يأخذون جـزءاً من الإسلام ، آية أو حـديثاً ، يعزلونـه عن سائر الآيـات والأحـاديث ، ثمّ يبنـون عليه - فقهـاً مـريضـاً . ومن الأسباب لهذا الـوهم ابتعاد الناس عن الكتاب والسنـة ، وأخذ الإسـلام كلمة من هنـا وكلمـة من هنـاك ، دون أن تكوّن هـذه الكلمات علماً حقّـاً . ثمّ إنها وسوسـة شيـاطين الجنّ والإنس ، وتسلل أفكار المنافقين والمشركين والكافرين إلى قلب المجتمعات الإسـلاميّـة ، ابتـلاءً من الله سبحـانـه وتعـالى ليمّحص عبـاده

ولتقوم لهم الحجّة أو عليهم ، وليُفتَن المنافق وينجو المؤمن الصادق .

إن المؤمن ، حين يعلن الشهادتين بصدق وإخلاص ، فإنه يعلن للدنيا كلها أن ولاءه الأول لله ، وأن عهده الأول مع الله ، وأن حبّه الأكبر هو لله ولرسوله ، وأنه من هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ينشأ كل ولاء وعهد وحب في الدنيا . إنه يعلن بهاتين الشهادتين أن روابطه وعلاقاته مع الناس جميعاً روابط إيمانيّة يصوغها الإيمان والتوحيد ، وأنّه يحبُّ في الله ويبغض في الله .

وبهاتين الشهادتين يعلم المؤمن أن الإيمان والتوحيد مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤولية وحساب ، وأن ذلك كلّه مفصل في منهاج الله – قرآناً وسنة ولغة عربيّة .

وبهاتين الشهادتين تنعقد في قلبه النيّة الخالصة لله ، النيّة التي تظل مصاحبة له في مسيرته كلها ، النيّة التي تعني أولا الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وثانياً أنها عزيمة على المضيّ على صراط مستقيم .

وبهاتين الشهادتين ، وبهذه النيّة ، وبهذا التصوّر لقضيّة الإيمان والتوحيد ، يبدأ الجهاد في سبيل الله ، جهاداً في نفسه حتى تستقيم على أمر الله ، جهاداً يظل ممتداً حتى يلقى الله سبحانه وتعالى :

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيّ عن العالمين ﴾ [العنكبوت : ٦]

﴿ وجاهدوا في الله حقَّ جهاده .... ﴾ [الحج : ٧٨]

عن فضالة بن عبيد عن الرسول ﷺ : **«المجاهد من جاهد نفسه في الله »** [رواه الترمذي وابن حبان] (١)

وبهاتين الشهادتين ، وبالنيّة الصادقة ، وبمجاهدة النفس ، وبذكر الله الممتد ، ينهض المؤمن ليوفي بالأمانة ، والعهد ، وحق الخلافة في الأرض ، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان . إنه ينهض من أجل ذلك إلى سائر التكاليف الربانيّة ، لتكون حياته كلها عبادة لله ، كما أمر الله . ينهض المؤمن ليمارس

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) (رقم : ٦٦٧٩) .

منهاج الله في الواقع البشريّ ممارسة إيمانية تدفع إلى العمل الصالح .

٤ - المسؤولية الرابعة : أداء الشعائر كلها والوفاء بها :

أن أول الممارسة الإيمانيّة بعد الشهادتين هي القيام بالشعائر كلها : الصيام والصلاة والزكاة والحج .

وهذه الشعائر مع الشهادتين جعلها الله أركاناً خمسة للإسلام ، وأسساً راسخة يقوم عليها بناء الإسلام بالتكاليف الربانيّة . إن جميع التكاليف الربّانية الأُخرى لاتصح ولاتقبل إلا إذا أوفى المسلم بالأركان الخمسة ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ :

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال : **«بُنيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»** [رواه الخمسة][1]

---

(١) أحمد : ١/ ٧٩ ، البخاري : ٢/ ١/ ١ ، مسلم : ١/ ٥/ ٢٠ ، الترمذي : ٤١/ ٣/ ٢٦١٢ النسائي : ٤٧/ ٣/ ٥٠٠١ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته (دط : ٣) رقم : ٢٨٤٠) .

إن الله سبحانه وتعالى غنيّ عن العالمين . فهذه الأركان الخمسة : الشهادتان والشعائر التي فرضها الله ، هي حاجة الإنسان نفسه ، هي غذاؤه الذي يمده بالقوة والعزيمة ، والحماية والقدرة على المضيّ على صراط مستقيم . هي التي تدفعه لينهض إلى سائر التكاليف الربانيّة ، ليوفي بحق الأمانة التي حملها والعبادة التي خُلق من أجلها ، والخلافة التي جُعلت له ، والعمارة التي أُمر بها .

إن الوفاء بجميع التكاليف الربانيّة عبادة لله . وإنها تمضي كلها متماسكة مترابطة لتمثل الصراط المستقيم بتماسكها واستقامتها على نهج ربّاني متكامل .

إن أداء الشعائر بحقّها هو جزء من العبادة لله سبحانه وتعالى ، والوفاء بالتكاليف الأخرى عبادة أيضاً ، وعمل المؤمن كله إذا صدقت النيّة على صراط مستقيم عبادة خالصة لله . والله الذي فرض الشعائر هو الذي فرض سائر التكاليف .

إن الشهادتين وأداء الشعائر تصل المسؤوليات والتكاليف بعضها ببعض ، وتدفع المؤمن للمضيّ ، وتربط العمل كله بالدار الآخرة .

إن كثيراً من المسلمين اليـوم يـؤدون الشعـائر وينطقـون بالشهـادتين ، ولكنهم يفصلون بين هذه الأركـان الخمسة وبين سـائر ممـارستهم في واقع الحيـاة . فقـد تجد الـرجل المنتسب إلى الإسـلام ، بالـرغم من صـلاتـه وصيـامه ، فإنـه يفكـر بمنهج عَلماني يفصل الـدنيـا عن الآخـرة ، ويفصل بين التكـاليف الربـانيّة ، فيـؤدّي مايشاء ويعطِّل مـايشاء . وقـد تجد مثل هذا الرجل يقف في صـفٍّ من يحارب الله ورسوله ، ويـدعو بـدعوة غير دعوة الإسلام .

فلا بد أن نعيد ونؤكد أن الأركان الخمسة فرض فرضه الله ، وأن هنالك فـرائض أخرى فـرضها الله سبحانـه وتعالى ، لايجوز تعطيلها ولا فصلها بعضهـا عن بعض . وأن الأركان الخمسة ، إذا أُدِّيت بحقّها ، فإنها تـدفع المؤمن إلى سائر التكـاليف وتحميه من أن يتـوقف في الطـريق أو يتراجع أو ينحـرف ، لأنها هي الأساس الذي تقوم عليه سائر التكاليف .

٥ - المسؤولية الخامسة : طلب العلم ودراسة منهاج الله وتدبّره [١]:

وكما ذكرنا قبل قليل ، فإن الوفاء بالأركان الخمسة يدفع المؤمن دفعاً إلى أن يُقبل على منهاج الله دراسة وتدبّراً وحفظاً على قدر وسعه الصادق الذي سيحاسِبه الله عليه ، لا على قدر وسعه الكاذب الذي يدّعيه تحت ستار من الأعذار .

إنه يُقبل إقبال شوق ويقين ، وتدبّر وفهم ، والتزام صادق وممارسة إيمانيّة ، صحبة عمر وحياة ، صحبة منهجيّة ، لاتتوقّف أبداً .

إنه يستعين من أجل ذلك بإمكانات المجتمع التي تعينه ولا تفتنه ولا تحرفه ولا تثبّطه .

إن دراسة منهاج الله وتدبره طلباً للعلم الحق هو فرض فَرَضه الله سبحانه وتعالى ، وبَلّغَنا إياه رسوله محمد ﷺ :

فعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : «طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ، وإن طالب العلم يستغفر له كل

(١) يراجع كتاب «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية» للمؤلف .

شيء حتى حيتان البحر » [رواه ابن عبدالبرّ وغيره] (١)

إنه تكليف من عند الله قائم على الأركان الخمسة مرتبط بها ، ممتدّ إلى ما يليها من التكاليف الربانيّة ، لتَتَّصِلَ التكاليف وتمتدّ على صراط مستقيم . وإن دراسة منهاج الله تغذّي عمل الأركان الخمسة وتشدُّ العزيمة للنهوض إلى سائر التكاليف الربانيّة . إنها تغذي إيمانه الذي انطلق منه وتغذي خشوعه في أداء الشعائر ، ويظل التأثير متبادلاً : الإيمان والشعائر تدفع إلى دراسة منهاج الله ، ودراسة منهاج الله تغذي الإيمان والتوحيد وصدق النيّة وإخلاصها لله ، حين يعرف المسلم من منهاج الله دربه كله ، والصراط المستقيم ، والأهداف الربانيّة الثابتة التي عليه أن يبلغها . إن النيّة وعي لما يقبل عليه المسلم وعزيمة على الوفاء به . ومنهاج الله يوفّر هذا ويغذّيه في قلب المؤمن الصادق . إن المسلم من منهاج الله يعرف التكاليف الربانيّة التي فرضها الله عليه ، والتي سيحاسَب عليها :

﴿ نحن أعلم بما يقولون وماأنت عليهم بجبّار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : ٤٥]

(١) الألباني : الأحاديث الصحيحة (١٧٦١) ، تخريج المشكاة (١٨٦) ، صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٤) .

نعم ! هذا هـو أمر الله : ﴿ ... **فذكّر بـالقرآن من يخاف وعيد ..** ﴾ . ففي القـرآن الكـريـم يجد المسلم التكـاليف التي يحاسَب عليها يوم القيامـة ، يوم الوعيد . وكيف يُعقَل أن يجعل الله مصير الإنسان إلى جنـة أو إلى نار ، ثم لايبيّن لعبـاده بجلاء سبيل كل منهما ؟! لايُعقل أبداً ، فقد بيّن الله ذلك بالتفصيل :

﴿ **كتاب فُصِّلتْ آيـاته قرآنـاً عربياً لقـوم يعلمون** ﴾ [فُصِّلت : ٣]

ويؤكـد القرآن الكريم أَهميّـة هذه العـودة لمنهاج الله ويلحُّ عليها ويأمر بها ، حتى لايبقى حجة ولاعذر لمتهاون أبدا :

﴿ **المص * كتب أنـزل إليك فـلا يكن في صدرك حـرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعـوا من دونـه أوليـاء قليلاً مـاتـذكـرون** ﴾ [الأعراف : ١- ٣]

وجاءت السنّة النبوية لتؤكد هذه الحقيقة الكبيرة والمسؤولية الخطيرة :

فعن أبي هـريـرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال : «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض » [رواه الحاكم في مستدركه][1]

إن هـذه العـودة إلى منهـاج الله - قـرآنـاً وسنـة ولغـة عربية-يجب أن تكـون عودة منهجيّة يدفعهـا الإيمان والتوحيد ، يقبل عليهـا الإنسان المؤمـن بشوق وخشـوع . ويجب أن تخضع لشروط ونهج وخطة حتى تُحقّق هذه العودة الكريمة هدفها .

ويمكن أن نوجـز معالم النهج والخُطـة بنقاط سريعـة نجد تفصيلاتها في كتاب : «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية » وكتـاب «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق » . أهم هـذه النقاط مايلي :

أ - أن يصاحب المسلم منهـاج الله مصاحبة عمـر وحياة ، صحبة لاتتوقف ، صحبة منهجيَّة .

ب - أن يأخـذ كل مسلم من هـذه الصحبـة قـدر وسعـه

(١) الألبـاني : الأحـاديث الصحيحـة (١٧٦١) ، تخريـج المشكـاة (١٨٦) ، صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٤) .

الـذي سيحاسبـه الله عليـه ، قدر وسعـه الـذي وهبه الله لـه ، دراسة وتدبُّراً وممارسة .

ج - أن يرافـق هذه الصحبـة دراسة اللغـة العربيّـة دراسة منهجيّة جادة .

د - أن يرافق هـذه الصحبة دراسة الـواقع ، لأن منهاج الله أُنزِل مـن عند الله ليُمارَس في واقع الحيـاة الدنيـا ، على أن تكون دراسة منهجيَّةً أيضاً .

هـ - على الـدعـوة الاسـلاميـة أن تضع تفصيـلات هـذه العودة إلى منهاج الله كما أشرنا أعلاه .

و - أن يكـون التدريب على ممـارسـة منهاج الله في الـواقع جـزءاً رئيساً من منهج الـدعوة وخطتهـا ، وأن يكون للتـدريب نظريتـه ونهجه وخطته . وتكـون الشهادتان والشعـائر وذكر الله أول الممارسـة الإيمانية والمسـؤوليـات عنـدئذٍ . ونجد تفصيـلات نظرية التـدريب ومناهجه ونماذجه ودراساتـه في كتب الدعوة . ولكن يقف أَمام العودة إلى منهاج الله عقبات كثيرة .

فهذه المسؤولية الخامسة التي يجب على المسلم أن ينهض إليها بعزيمة وقوة ، يقف أمامَ الوفاء بها عقبات كثيرة . إنها عقبات تراكمت مع التاريخ الطويل ، حتى هجر كثير من المسلمين منهاج الله وانقطعوا عنه :

﴿وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ [الفرقان : ٣٠]

ومن خلال نظرة عاجلة لواقع العالم الإسلامي ، وواقع من ينتسبون فيه إلى الإسلام ، نجد أن هناك خللين رئيسين بارزين تنطلق منهما سائر ألوان الضعف والخلل والتمزّق . هذان الخللان هما : الخلل في التصور الإيماني والتوحيد ، والهجر لمنهاج الله .

وإذا كانت الآيات والأحاديث تلح بالتزام المسلم لمنهاج الله وبتعهُّده ومصاحبته صحبة عمر وحياة ، فإن أئمة الإسلام على مدار التاريخ ذكَّروا الناس بأمر الله ورسوله في هذا الشأن ، وقالوا في جملة ماقالوا : **خذوا من حيث أخذنا** .

لكننا لاننكر أن قروناً طويلة من التاريخ الإسلامي وضعت عقبات كثيرة أمام عودة الناس إلى منهاج الله ومصاحبته والتزامه . . لقد أقام هذه العقبات هوان المسلمين أنفسهم ، ومكر أعداء الله الذين استغلوا هذا الهوان .

وكان من أهم هذه العوائق ضعف الإيمان أو الخلل فيه وفي تصور التوحيد ، حتى ضعف الحافز الإيماني في قلوب بعض الناس أو اختفى عند آخرين .

ومن أهم هذه العوائق ضعف اللغة العربية عند أبناء الإسلام عامة وعند العرب خاصة ، حتى غلبت العجمة على لسان الكثيرين ، فعمّ الجهل بين المسلمين بالقرآن والسنة ، وأصبح المسلم عالة على غيره ، عالة على العلماء والدعاة ، وادعى العلم كثيرون من غير أهل العلم ، وأصبح المسلم لايكاد يشعر بالتكاليف الرّبانية التي وضعها الله في عنقه ، وغابت عنه معاني العهد مع الله ، والولاء لله ، ومعاني الألوهية والربوية ، وعبودية الإنسان لربه وخالقه . وغابت عن كثير من المسلمين مسؤولية حمل الدعوة الإسلامية إلى الناس وبيانها لهم ، وغير ذلك من المسؤوليات والتكاليف .

لقد أصبح الكثيرون يدرسون أصعب علوم الدنيا ، ويبذلون الجهد العظيم لها ليلاً ونهاراً حتى ينالوا أعلى الشهادات بها ، ثم تراهم يُدبرون عن تدبّر منهاج الله .

إن منهاج الله علم حق . بل هو أساس كل علم . ولكن شاع بين الناس تعبير «**الثقافة الإسلامية** » ، حتى استقرّ في أذهان الكثيرين أن الإسلام ليس **علماً** ، وأنه **ثقافة** ، وأنه حَسْب المسلم أن يأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك .

وتوالت العقبات أمام المسلم تصدّه عن تدبر منهاج الله ، فازداد ضعف إيمانه . وكلما ازداد ضعف إيمانه . ازداد إدباره عن تدبر منهاج الله . وأصبحت ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والسياسية عوامل تساعد على صدّ المسلم عن منهاج الله وعن التصور الحق للإيمان والتوحيد ، وعن حقيقة التكاليف الربانية التي سيحاسبه الله عليها يوم القيامة .

عقبات كثيرة لاننكر وجودها . ولكننا نعتبر الأُمة كلها بجميع مستوياتها مسؤولة عن ذلك وعن عدم النهوض لمعالجة هذه العقبات على أساس من نهج وخطة ، وتوفير السبل

والوسائل للعودة الواعية إلى منهاج الله ، ولتدبّره والتزامه ، وكذلك لممارسته في واقع الحياة ، والتدريب على ذلك .

ولكن أول المسؤولين المسلم نفسه الذي لايحلُّ له أن يجلس مسترخياً لاهياً عازفاً عن منهاج الله ، مدبراً عنه ، هاجراً له ، ثم يضع اللوم على الآخرين فحسب ، ناسيا مسؤوليته الأولى ، باحثاً عن المسوّغات والأعذار الباطلة لهجره منهاج الله .

على المسلم نفسه أن ينهض هو أولاً ليستفيد من إمكانات المجتمع وهي كثيرة : العلماء والدعاة ، الكتاب الذي يعين ، وسائر الوسائل الحديثة المتوافرة .

أيها المسلم ! أيها المسلمون ، أيها العلماء ! أيها الدعاة ! انهضوا جميعاً لنغيّر مابأنفسنا أولاً من عجز وتقصير وإقبال على الدنيا ، ولننهض إلى مسؤولياتنا كما أمر الله بها وفصّلها في منهاج الله .

لقد ظن بعض المسلمين أن أداء الشعائر هي أقصى مايطلب الإسلام منهم . وهذا وهم . فالشهادتان والشعائر هي الأساس الذي بُنِيَ عليه الإسلام ، وبُنِيتْ عليه التكاليف . وكل مسلم

مكلَّف قدر وسعه الصادق الذي وهبه الله له ليضعه في نصرة دين الله . أَوَ يُقبَل من مسلم أن يَدَّعي أن وسعه ضاق عن تدبّر منهاج الله واتسع لدراسة الطب والهندسة وغيرهما ؟!

من منهاج الله تُعرف التكاليف ، فإلى منهاج الله أيها المسلم قبل أن يأتي يوم لامردّ له من الله . وتكون الشهادتان والشعائر وذكر الله أول التكاليف والمسؤوليات عندئذ . إنها التكاليف التي تكوّن الأركان الخمسة التي تقوم عليها سائر التكاليف الربّانيّة .

أيها الدعاة والمسلمون ! لاتخافوا على الإسلام ، فالله ناصر دينه ، وهو غنيّ عن العالمين . ولكنه ابتلاء وتمحيص ، فخافوا على أنفسكم من فتنة الدنيا والنكوص عن التكاليف الربانية ، ومن عذاب الآخرة ، وتوبوا إلى الله جميعاً :

﴿ ... وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾
[النور : ٣١]

٦ - المسؤولية السادسة : دراسة الواقع ووعيه من خلال المنهاج الربّاني :

في هذه المرحلة التي يمرُّ بها المسلمون ، تجتاحهم الأَعاصير

والنكبات والفواجع ، والهزائم والمجازر ، وأَعداء الله يثبون على المسلمين بالسلاح المدمِّر والفتنة والفجور ، والنساء والخمور . في هذا الأجواء من الظلام المتلاحق ، من كان يظنّ أننا نستطيع أن ننجو دون العودة الصادقة إلى الله ، ودون العودة الصادقة إلى منهاج الله ، فإنه واهم ! ومن كان يظنّ أننا نستطيع أن نجابه صفّ الأعداء المتراص بصفوف ممزّقة متنافرة ، وقلوب متنافرة ، وأهواء متصارعة ، فإنه غارق في الوهم والضلال ! ومن كان يظن أنه وحده قادر على مجابهة هذه الأخطار المحدقة ، فإنه غارق في سكر وخدرٍ ووهم وكبر !

ومن كان يظن أن هنالك شيئاً يجمع الأمة غير صفاء الإيمان والتوحيد ، وصفاء العودة إلى منهاج الله ، فإن وهمه أشد ، وضلاله أبعد .

ومن كان يظنُّ أن الله يُنزل نصره على الناس لأنهم ادّعوا الانتساب إلى الإسلام دون التزام صادق وممارسة أمينة ، فإنه كذلك ضارب في بحار الوهم والظن الباطل .

إن الله سبحانه وتعالى لايُنزل نصره إلا على من أوفى بعهده مع الله ، وصدق الله بالوفاء :

﴿ ... وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم و إياي فارهبون ﴾
[البقرة : ٤٠]

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [غافر : ٥١، ٥٢]

إن أمور الدين وقضايا الإيمان ليست أمانيَّ وأحلاماً ، ولا ظنوناً وأوهاماً . إنها جهاد حق ، وابتلاء ماضٍ ، وتمحيص أكيد ، وبذل ومعاناة ، والله مطلع ، يقضي بالحق والذين من دونه لايقضون بشيء . وهذا كله يجب أن يكون عملاً منهجيّاً لا ارتجال معه ، ولا ردود فعل آنيّة . ولكنه نهج ممتدٌّ وصراط مستقيم .

إذا نظرنا إلى واقعنا ومآسينا فلا نضع اللوم على أعداء الله وأعدائنا . بل نضع اللوم على أنفسنا . إنَّ الله حق ، يقضي بالحق ، ولايمضي أمر في الكون إلا بقضاء الله . فما أصابنا إذن هو بقضاء الله وقدره ، وقضاء الله وقدره حق لايظلم أبداً ،

فالعيب إذن فينا نحن المسلمين ، في أنفسنا . فإن أردنا النجاة صادقين فلننظر في أنفسنا ، ولنبحث عن عيوبنا ، لننهض ونعالجها ، ولنستقم على أمر الله ، قبل أن تتوالى الفواجع :

مالي ألوم عدوّي كلما نزلت بي الفواجع أو أرميه بالتّهم
وأدّعي أبداً أني البريء وما حملتُ في النفس إلا سقطة اللَّمم
أنا الملوم فعهد الله أحمله وليس يحمله غيري من الأُمم

ماذا ينتظر المسلم من أعداء الله الذين يحاربون الله ورسوله ليل نهار ؟! أينتظر منهم أن يقدّموا له النصر على أطباق من الذهب ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لايرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾
[التوبة : ١٠]

إن الإيمان والتوحيد ، وهما يمثلان القضية الكبرى للإنسان ، انفتاح على واقع الحياة ، وتدبّر لسنن الله فيها ، ووعي واسع لأبعاد الواقع وآفاقه . إن الإيمان والتوحيد ليسا غياباً ولاغيبوبة ، ولكنهما حضور وإفاقه وقوة . إنه النّور الذي

يشقّ الظلمات ، ويجلـو الحق أمام المؤمنين ، ويمـدّ الدرب على صراط مستقيم ، وينفي ردود الفعل الآنيـة والارتجال ، ويـرسى قواعد العمل المنهجي .

إلى هذه الحقـائق يجب أن تتجه مـدرسة الإسـلام في واقعنا اليـوم ، وإليها يجب أن يتجـه الـدعاة ، لتكـون هـذه القاعـدة الصلبة للـدعوة الإسلامية ، وليكـون هذان الركنان الأسـاسيان اللذان ينهضـان عليها - المنهاج الـرباني والواقع - لتكـون هذه الثـلاثـة معـاً لاينفصل بعضهـا عن بعـض ، منطلقـاً للعمل الصـالح ، والممارسة الإيمانيـة الصـادقة ، ومنطلقـاً لنجاة الأمـة ومعالجة الواقع .

إن كل واحدة من هذه القضايـا الثلاث تحتاج إلى دراسات أمينـة ، لتنزل إلى الـواقع ممـارسةً وتطبيقـاً ، لا شعاراً يُطـوى ، وصيحةً تغيب . يجب أن يرى العالم كله حقيقة الإيمان والتوحيد ، لامن خـلال المؤتمرات والنـدوات والكتـب ، ولكن من خـلال الممارسة والصورة الحيّة النابضة .

٧ - المسؤولية السابعة : ممارسة منهاج الله في الواقع ، ومعرفة المسلم لحدوده ، ومبادرته الذاتية بحوافز إيمانيّة والاجتهاد ومجاهدة النفس في حدود مسؤولياته وأمانته وعلمه :

على ضوء ماسبق عرضه ، حين يوفي المسلم بمسؤولياته التي سبق عرضها : الإيمان والتوحيد ، تدبر منهاج الله ، وعي الواقع من خلال منهاج الله ، تتوالى أمامه الآيات والأحاديث التي تبيّن له تكاليفه ومسؤولياته وحقوقه . كيف لا ، وقد عرف أن الإيمان والتوحيد **مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤولية وحساب** ، وعرف أن منهاج الله هو المصدر الأول الرئيس لهذا كله . سيعرف عندئذ أن على كل مسلم مسؤوليات في الحياة الدنيا تؤكدها الآيات والأحاديث ، وحسبنا هنا أن نذكر بحديث رسول الله ﷺ عن ابن عمر : «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبد**

راع على مال سيده وهو مسؤول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » [رواه الشيخان والترمذي][(١)]

وهكذا شمل الحديث الشريف جميع مستويات الأُمة ابتداءً من الأمير حتى العبد . ويدخل في هذا الشمول : التاجر والموظف والسياسي والاقتصادي والمدرس ، والرئيس والخادم . ولذلك ذكر البخاري هذا الحديث في كتب الجمعة والاستقراض والوصايا والعتق والنكاح والأحكام ، ومسلم في الإمارة والترمذي في الجهاد ، فشمل الحديث جميع المستويات والأفراد والميادين .

ومحور هذه المسؤولية التي يحملها كل مسلم هو ممارسة منهاج الله في واقعه وفي حدود مسؤولياته وأمانته واختصاصه . فيصبح في هذه الحالة من أهم مسؤولياته أن يعرف حدوده وأمانته واختصاصه على أساس مما سبق عرضه في تحديد المسؤوليات .

(١) البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ . مسلم : ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ . الترمذي : ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥ .

فإذا عرف المسلم حدوده وأمانته وجب عليه التزامها والوفاء بها ، وعدم التعدّي على حقوق غيره ومسؤولياته ، ووجب معرفة حدود من يتعامل معهم لينزلهم منازِلَهم : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من حُسن إسلام المرء تركُهُ مالايعنيه» [رواه الترمذي ومالك][1]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «أمرنا رسول الله أن ننزل الناس منازلهم » [مسلم] [2]

فلا بد للمسلم إذن أن يعرف مايعنيه ومالا يعنيه ، وأن يعرف حدوده وحدود غيره . والمصدر الأول لهذا كله هو المنهاج الرباني .

وتأتي بعد ذلك المسؤولية الأُخرى وهي المبادرة الذاتية تحركها الحوافز الإيمانية إلى مسؤولياته وواجباته . هذه المبادرة الذاتية مرتبطة كل الارتباط بكل ماسبق عرضه . فكيف تتولد الحوافز الإيمانية لتدفع المبادرة الذاتية إذا ضعف الإيمان أو

(١) الترمذي : ٢٧/ ١/ ٢٣١٧ . مالك : (رقم : ١٦٢٩) .
(٢) مسلم : المقدّمة .

اضطرب ، وإذا لم يصدق العلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلال منهاج الله .[1]

ويظل محور هذه المسؤوليات هو ممارسة منهاج الله بحدود مسؤوليات المسلم وأمانته . ولكنه أثناء هذه الممارسة الإيمانية سيجد أمامه قضايا هو مسؤول عنها لايجد لها نصوصاً في منهاج الله . هنا يكون من مسؤوليته الاجتهاد إذا توافرت الشروط السابق ذكرها كلها ، وإذا عرف حدوده ومسؤولياته التي سيحاسبه الله عليها .

ومن هنا جاء حديث رسول الله ﷺ الذي يحدِّد للمسلم هذه المسؤولية الهامة في الاجتهاد فيما يعرض له عندما تتوافر الشروط السابقة :

فمن حديث وابصة قوله ﷺ : «ياوابصة ! استفت قلبك واستفت نفسك (ثلاث مرات) البرّ ما اطمأنّت إليه النفس ، والإثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » [رواه أحمد][2]

(١) يراجع كتاب منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ، للمؤلف ، وكتاب : الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام .
(٢) أحمد : الفتح الرباني : ١٩/ ٥٩ .

فالاجتهاد إذن مسؤولية كل مسلم فيما يدخل في دائرة مسؤولياته التي سيحاسبه الله عليها يوم القيامة . فالطبيب المسلم يجب أن يعرف منهاج الله ويدرسه في حدود وسعه وأمانته حتى يستطيع أن يجتهد فيما يجدّ له من أحداث . والمهندس كذلك ، والتاجر في تجارته ، وغيرهم .

المهندس مثلاً تمرّ عليه قضايا في مهنته ومن خلال مسؤولياته تحتاج إلى رأي وفتوى . والرأي والفتوى تحتاج إلى فهم القضية . والقضية قضية فنّية يحتاج فهمها إلى علم في هذا الاختصاص ، وإلى دراسة مواصفات فنية واسعة وعروض شركات ربما بلغت مجلّدات كثيرة ، ودراسة عقود وماأشبه ذلك . فكيف يمكن لأحد أن يفتي في هذه القضية إلا إذا توافرت فيه هذه الشروط . إن معرفة الدين والشرع ومنهاج الله ، كلٌّ قدر وسعه الصادق ضرورة لاغناء عنها لأي رأي أو فتوى ، ولكن يجب أن ينضم إلى العلم بمنهاج الله وعي هذه القضية الفنية وعياً أميناً .

لانستطيع أن نطلب اليوم من علماء الشريعة أن يدرس كل

واحد منهم جميع الاختصاصات العلمية . ولكننا نستطيع أن نطلب من أصحاب الاختصاصات العلمية أن يدرسوا منهاج الله ويتدبّروه ، حتى يتيّسر لهم ممارسة الحديث الشريف السابق . يضاف إلى ذلك أن تدبّر منهاج الله واجب على كل مسلم قدر وسعه وطاقته ، ولكن دراسة التخصصات الفنيّة ليستْ واجباً على كل مسلم .

ففي ميدان التخصص والمسؤولية والأمانة على كل مسلم أن يجتهد فيما يعرض له من أمر ، بعد أن يستكمل الشروط اللازمة لذلك . ومن واجبه أن يبادر إلى استكمال هذه الشروط .

إن واقعنا اليوم يشهد ظروفاً مغايرة لذلك . الطبيب قد يجهل دينه ، ويضطر العالم الشرعي أن يفتي في بعض الأمور الفنيّة . فلابد أن يعي المسلم اليوم هذه المسؤوليات والواجبات ، فإنه محاسَب عليها غداً بين يدي الله . وكثيرون من المسلمين اليوم لايدركون خطورة هذا الأمر ، فيتهاونون فيه تهاوناً كبيراً .

٨ - المسؤولية الثامنة : المساهمة في تحقيق الأهداف الربانيّة الثابتة ، وأوّلها : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد :

إذا صدق المسلم بالوفاء بالمسؤوليات السابقة ، فإن

المسؤوليات الأخرى والتكاليف الربانيّة تتفتّح أمامه من منهاج الله ، ومن إيمانه الذي يغذيه منهاج الله ، ومن وعيه للواقع من خلال منهاج الله .

هذه المسؤوليات تصبح مسؤولية الأمة بكامل طاقاتها حين تقوم الأُمة ، وتقوم مسؤوليات الأمة وواجباتها بقيام المسؤولية الفردية كما ذكرنا سابقاً .

ويصبح الوفاء بالمسؤولية الفردية أساساً لبناء الروابط الإيمانية ، ولبناء الأمة لتتابع الأمة الوفاء بهذه المسؤوليات .

إن المسؤوليات التي تُبنَى على المسؤوليات السابقة لايمكن حصرها في هذه العجالة بتفصيل . ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه المسؤوليات تتمثل في قيام الفرد والجماعة بالسعي لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية الثابتة التي سبق أن أشرنا إليها ، والتي نعيد إيجازها هنا : :

- الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد .
- التربية والبناء ، والتعهد والتدريب .
- بناء الجيل المؤمن .
- الأمة المسلمة الواحدة التي يحكمها منهاج الله وتكون

كلمة الله هي العليا فيها .

● الانتشار في الأرض وبناء حضارة الإيمان بدلاً من الحضارة المادية .

ومن أجل هذه الأهداف الربّانية الثابتة تقوم أهداف مرحلية تتحدّد على أساس من منهاج الله والواقع ، تعين على الانتقال من هدف ثابت إلى هدف ثابت آخر ، على طريق ممتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى -الجنّة- .

إن كل مسلم مسؤول عن المساهمة في تحقيق هذه الأهداف الربانية في الواقع البشري قدر وسعه وطاقته ، ولايعذر أحد بالتخلّف عنها إلا بعذر شرعي واضح وتتماسك هذه الأهداف الثابتة فيما بينها ، حتى إذا انتقلنا إلى الهدف الثاني عمل الهدفان الأول والثاني معاً . وتظل الأهداف تمتد من مرحلة إلى مرحلة حتى تعمل كلها معاً . ولقد درسنا «الأهداف» في كتاب لقاء المؤمنين - الجزء الثاني .

وفي هذه المسيرة يصاحبُ المسلم عدة قضايا ضرورية له لمتابعة المسيرة حتى الهدف الأكبر والأسمى . ونوجز هذه القضايا بالنقاط التالية :

١ - إخلاص النيّة الواعية ، النيّة التي عرفت الدرب كله

والأهداف ، النية الخالصة لله ، مع العزيمة والتصميم النابعين من الإيمان والتوحيد واليقين على متابعة المسيرة حتى يلقى المسلم ربَّه .

٢ – مجاهدة النفس لتستقيم على أمر الله ، كما ورد في الحديث الشريف الذي يرويه فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، والذي سبق ذكره .

٣ – أداء الشعائر بخشوع والوفاء بأدائها .

٤ – ذكر الله ليظل اللسان رطباً بذكر الله ، والقلب معلقاً بالجنة والدار الآخرة .

٥ – مصاحبة منهاج الله تلاوة ودراسة وحفظا مع التدبّر .

لابد أن تصاحب هذه القضايا المسلم في مسيرته وهو ينتقل من هدف إلى هدف لينضم الهدفان معاً ، ثم لتنضم الأهداف واحداً بعد الآخر فتعمل كلُّها معاً .

وفي هذه المسيرة كلها يكون من مسؤولياته ومن التكاليف الربانيّة التي عليه ، أن يلتزم جميع قواعد الإيمان والتوحيد وقواعد منهاج الله : من صدق ووفاء ، وبذل وعطاء ، يأتي

الحلال ويدع الحرام كله في جميع ميادين ممارسته مع نفسه وبيته وأرحامه ووالديه ، ووظيفته وتجارته ، وأمته المسلمة كلها .

وفي نهاية هذا الباب نوجز المسؤوليات والتكاليف الربانية بنقاط محدّدة للتذكير والتأكيد وتيسير المراجعة والتدبر :

١ - **المسؤولية الأولى والتكليف الأول على الإنسان** : أن يفكّر تفكيراً منهجيّاً نابعاً من فطرته التي فطره الله عليها ، ومتدبّراً لآيات الله في نفسه وفي الكون كله ، متدبّراً لآيات الله البيّنات التي يبلّغها الرسل والأنبياء الذين خُتِموا بمحمد ﷺ وسلم وبرسالته الكتاب والسنة كما جاءا باللغة العربيّة ، تفكيراً يقود إلى الإيمان والتوحيد وإلى رسالة الإسلام كما جاء بها محمد ﷺ .

٢ - **المسؤوليّة الثانية** : أن يتخذ قراراً بالإيمان أو الكفر أو الشرك وأن يتحمل مسؤوليّة قراره في الدنيا والآخرة .

٣ - **المسؤوليّة الثالثة : الشهادتان** : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ ، وأن يعلنهما وأن يقوم بالالتزام بمقتضياتهما . فالإيمان مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤوليّة وحساب .

٤ - **المسؤوليّة الرابعة** : أداء الشعائر كلها والوفاء بها ، لتكون الشهادتان والشعائر الأركانَ الخمسةَ التي تنهض عليها سائر التكاليف الربّانيّة .

٥ - **المسؤوليّة الخامسة** : طلب العلم فريضة على كل مسلم من منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة .

٦ - **المسؤولية السادسة** : دراسة الواقع ووعيه من خلال منهاج الله وردّ الأمور إليه عن إيمان ويقين وعلم لا عن ظنٍّ وتخمين .

٧ - **المسؤولية السابعة** : ممارسة منهاج الله في الواقع البشري ، ومعرفة المسلم لحدوده ، ومبادرته الذاتيّة بحوافز إيمانية ، والاجتهاد مع مجاهدة النفس في حدود مسؤولياته وأمانته وعلمه .

٨ - **المسؤولية الثامنة** : المساهمة في تحقيق الأهداف الربّانيّة ، وأولها الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، إلى كامل رسالة الإسلام - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - دعوة منهجيّة ، لها نهجها وخطتها على أساس قواعد الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلاله .

٩ - وتمضي من خلال ذلك سائر المسؤوليات والتكاليف المتعلقة بالتكاليف السابقة أو ببعضها أو بواحدة منها : مع نفسه وأهله وأرحامه وأمته والناس كافة .

الباب الثالث

المسؤولية الفرديّة
وبناء الأمة المسلمة الواحدة
وتميّزها عما هي عليه في
المذاهب العَلمانيَّة
وسبيل الوفاء بها

الفصل الأول
المسؤوليّة الفرديّة
وبناء الأمة المسلمة الواحدة
وتميّزها عمّا هي عليه في المذاهب العَلمانيَّة

١- دور المسؤولية الفردية في بناء الأمة المسلمة الواحدة وبناء مسؤولياتها :من هذه المسؤوليات التي عرضناها تتفتَّح أمام المسلم سائر المسؤوليات والتكاليف الربانية التي يحددها منهاج الله ويفصِّلها ، لتمارس في الواقع الذي يعيشه المسلم ، والذي يفهمه من خلال منهاج الله .

وإذا كانت هذه هي مسؤوليات الفرد المسلم إلا أن مسؤولية القيام بها لا تنحصر في الفرد المسلم منعزلاً عن الأُمة أو منطوياً عنها . إنها في الوقت نفسه مسؤولية الجماعة والأُمة ، حين تتنافس الجهود وتترابط العزائم لتصبَّ كلها في مجرى واحد من الخير والصلاح ، والقوة والعزّة .

فمن هذه المسؤولية الفردية تُبْنَى مسؤولية الأمة من خلال ما يبني منهاج الله من روابط إيمانية ، وما يقوم على ذلك كله من نهج وتخطيط يجمع ويبني ، ونظام إداري يحدّد الصلاحيات

والمسؤوليات والحقوق ، والإشراف والمراقبة والتوجيه والمتابعة .

إن الارتجال وردود الفعل لاتعين المسلم الفرد ولا الأمة على الوفاء بالمسؤوليات . ولا تفيد الشكوى والنواح على الأطلال .

إن النهج والتخطيط سمة من سمات العمل الإيماني والممارسة الإيمانيّة . إنه ثمرة المسؤوليات التي سبق عرضها حين يصدق المسلم في الوفاء بكل واحدة منها .

إن الإيمان والتوحيد وعي وإفاقة ويقظة . إنه ارتباط الإنسان بربه وخالقه ، بالحق الذي تقوم عليه السموات والأرض ، والحياة الدنيا والآخرة .

إن الإيمان والتوحيد هما المفتاح لتدبّر منهاج الله . وكيف يتدبّر الإنسان منهاج الله إذا لم يصدق الإيمان والتوحيد . لقد جعل الله على قلوب الكافرين والمنافقين أكنّة أن يفقهوا القرآن ، وفي آذانهم وقراً :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ماقدّمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه

وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾
[الكهف : ٥٧]

إن كل واحدة من هـذه المسؤوليات تحمل في جوهـرها قوة تربط المؤمن بالمؤمن لِتُبنى الأمة المسلمـة . وتزداد هذه القوة كلما ازداد صفاء هـذه المسؤوليـات وصدقهـا ، ويصبح الـوفاء بهذه المسـؤوليات أسـاس بنـاء الأمـة المسلمة الـواحـدة في الأرض ، وغيـاب هـذه المسـؤوليـات الفرديـة يعطل بنـاء الأمـة المسلمـة الواحدة ويعطل مسؤولياتها .

٢ - الأخطاء الناتجة عن غياب المسؤولية الفردية :

إذا كانت المسؤوليات الفردية في خطـوطها العامة العريضة هي كما عرضنـاها مبينـة على منهاج الله ، فإن تفصيـلات هذه المسؤوليات ومنزلتها وأهميتها مفصلة في منهاج الله .

فالشهـادتان وأداء الشعـائر وذكر الله ، ذلك كلـه هو أول المسـؤوليـات بعـد الإيمان والتـوحيـد . بل هي جـزء من الإيمان والتـوحيـد ، وهي الأسـاس الـذي بُني عليـه الإسـلام بسـائر التكاليف الربّانيّة .

وهي مسؤولية كل مسلم في الدنيا وفي الآخرة . وعليها تقوم سائر المسؤوليات ومنها تنبع . وهي تؤلف قاعدة هامة لبناء الروابط الإيمانية وبناء الأمة المسلمة الواحدة .

فإذا كانت هذه هي مسؤوليات الفرد المسلم ، فمنها تتكون مسؤولية الأمة . فإذا غابت المسؤولية الفردية أو اضطربت وتقلصت ، اضطربت مسؤولية الأمة ، وظهرت فيها الدعوات المضطربة والاتجاهات المنحرفة والمبادىء الخارجة عن الإسلام ، من ديكتاتورية وديمقراطية واشتراكية وعلمانية وحداثة بألوانها ومذاهبها المختلفة .

عندما تغري الديمقراطية اليوم بعض المسلمين بزخارفها ، فإن هذا يكون نتيجة لسوء واقع المسلمين ومافيه من ظلم وخوف وقلق وعدم مساواة ، ونتيجة لعدم تطبيق الإسلام تطبيقاً أميناً تبرز فيه عظمة الإسلام وعدالته والحرية المتوازنة الكريمة فيه ، وقواعد المساواة ، والأمن ، وتوزان الحقوق والمسؤوليات ، فينصرف بعض الناس ، لا لإقامة عدالة الإسلام والحرية المتوازنة فيه والمساواة الأمينة في تشريعه ، بل

للبحث عن ذلك في فلسفات بشرية تائهة ، حيث تضيع بذلك جهودهم في الدنيا والآخرة . فاعجب إذا شئت حين ترى داعية مسلماً يدعو للديمقراطية في أمريكا ، وداعية آخر يدعو للرفق بأهل الكتاب الذين يذبّحون المسلمين ليل نهار ، وداعية آخر مسلماً يدعو لأوثان أُخرى هنا وهناك .

غياب المسؤولية الفردية يجعل الملايين من المسلمين غثاء كغثاء السيل ، أو قطيعاً يُساق إلى هلاكه ، تحت خَدَرٍ شديد من دويّ الشّعارات التي لايصحبها علم ولا ممارسة أمينة . ومن دوي الهتافات والتعبيرات العائمة .

إن غياب المسؤولية الفردية يضع أخطر العوائق أمام صدق التعامل مع الواقع ، حيث تُدفَع القطعان ، كل قطيع باتجاه ، فتتصادم الجهود أو تموت ، وتقتل الأوقات وتُهدَر الطاقات .

وغياب المسؤولية الفردية يضيّع على المسلمين حسن ترتيب الأوليات ، والخطوات والأهداف ، ويفتح أبواب الفتنة، ويغيب النهج والتخطيط .

إن غياب المسؤولية الفردية يفتح المجال لظهور ماأُسميه «**بالطبقة العائمة**» ، الطبقة التي تكون مرتعاً لقوى الشر ولأعداء الله ، يفسدون فيها ، ويستغلونها لإفساد الآخرين .

إن غياب المسؤولية الفردية والوعي الناتج عنها يمدُّ ساحات الإشاعات والقيل والقال . فتمتدّ الفتنة وتظهر الدعوات المتناقضة ، وتُستهلك الجهود في محاولات التوفيق بين حقٍّ بيِّن وباطل مكشوف .

هذا كله في الحياة الدنيا . أما في الآخرة فالمصيبة أدهى وأَمرّ عند غياب المسؤولية الفردية ، حيث يقف كل إنسان وحده بين يدي الله ، يتخلّى عنه الأعوان والأوثان وكل من ادّعى قوة وسلطاناً :

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرّة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضَلَّ عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ [الأنعام : ٩٤]

وكذلك :

﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : ٩٣-٩٥]

إن المسؤولية كلها في ميزان الإسلام ممتدة بين الدنيا والآخرة ، لاينفصل بعضها عن بعض ، سواء في ذلك مسؤولية الفرد والجماعة والأُمة والناس كافّة . إن الله ربّ الدنيا والآخرة ، وهو رب العالمين . ومنهاج الله منهج حياة كامل في الدنيا وبلاغ عن الآخرة ، منهج للفرد والأُمة والبشرية .

فالمسؤولية في ميزان الإسلام ممتدة من الدنيا إلى الآخرة ، لايمكن الفصل بينهما ، ويضطرب التصوّر ويختلُّ لو انعزلت مسؤولية عن الأُخرى . فحين يقول رسول الله ﷺ : «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . . . »[1] ، فإنه يكشف لنا ارتباط المسؤولية في الدنيا بالمسؤولية في الآخرة وامتدادها . كما

(١) عن عبدالله بن عمر . رواه الشيخان والترمذي : البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ ، وفي كتاب الجمعة وكتب أخرى . مسلم : ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ ، الترمذي ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥

يكشف لنا هذا الحديث الشريف أن على هذه المسـؤولية الفرديّة تقوم مسؤولية الجماعة والأمة ومسؤولية البشرية كلها .

فلينهض المسلم الذي أوفى بمسـؤوليته الأولى ، إذا صدق إيمانه بربّـه وأفاق من غفوته ، إلى مسؤوليته الثـانية ، إلى منهاج الله تـلاوة ودراسة وتـدبّراً، ليعـرف منـه سائر مسـؤولياتـه التي سيُحاسَب عليها .

وسيجد المسلم الصـادق الذي يعزم على الوفـاء بعهده مع الله ، حين ينهض إلى مسؤولياته التـي عرفها من منهاج الله ، أنّ عليه أن يحاسِبَ نفسه بين حين وآخـر ، وأن يراقبها ، وأن يقوّم عملـه ، حتى يستطيع أن يغيّر مـابنفسـه إلى طاعـة أمينـة لله ، حتى يُغيِّر الله لنـا واقعنا . وأُذكّر نفسي أولاً وأذكر إخواني المؤمنين بآيات لله بيّنات :

﴿سـواء منكم من أسرّ القول ومن جهـر به ومن هـو مستخف بـالليل وسارب بـالنهـار * له معقبـات من بين يـديـه ومن خلفـه يحفظـونـه من أمـر الله إن الله لايغيّر مابقـوم حتى يـغيّروا مابأنفسهم و إذا أراد الله بقـوم سوءاً

فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال ﴾ [الرعد : ١٠ ، ١١]

وكذلك :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا مابأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ [الأنفال : ٥٣]

٣ - المسؤولية الفردية بين الإسلام وبين المذاهب البشرية :

من أخطر مايصيب المجتمعات البشرية اضطراب المسؤولية الفردية ، اضطراب مسؤولية الإنسان وواجباته وحقوقه ، من خلال ماتتبنّى المجتمعات البشرية من مبادىء وفلسفات .

إذا استعرضنا تاريخ الإنسان وواقعه اليوم نجد أن المسؤولية الفردية مختلّة ومضطربة بين انفلات شديد ، كما هي الحالة في المجتمعات الغربية وما تتبناه ديمقراطيتها من حرّية فرديّة واسعة ، أغرقت الإنسان في شهواته وأهوائه المادية حتى خدّرته ، فاستسلم لهذا النظام ، وبين قيود خانقة ، كما هي في ديكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتاريا) وما تستَبِدُّ به من حكم ديكتاتوري مطلق أرهب الناس حتى استسلموا إليه ، وبين نظم أخرى مختلفة أضاعت الإنسان في متاهات بعيدة بين

اضطراب مسؤولياته واضطراب حقوقه ، مما أورث المجتمعات البشرية صراعات ممتدة وحروباً طويلة ، واختلالاً ظاهراً في الموازين والتقويم ، واضطراباً في معنى العدالة والحرّية والمساواة ، حتى لم تعد الشعارات كافية لإنقاذ الإنسان ، ولا اللجان والجمعيات والهيئات القومية والدولية . وامتلأت الأرض فتنة وفساداً في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس :

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم : ٤١]

هذه القضية ، قضية الإنسان في الحياة الدنيا ومسؤوليته ودوره فيها ، شغلت الفلاسفة والمفكرين في مختلف الأمم والشعوب منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

وظهرت فلسفات كثيرة حول هذا الموضوع وما يتفرَّع عنه من قضايا . ولكن هذه الفلسفات البشرية جاءت مضطربة مبهمة متناقضة ، تأخذ جزئية واحدة من الحياة الدنيا ، ثمّ تبني عليها تصورها الكامل للكون كله والحياة كلها ، والإنسان بامتداد عصوره وأجناسه وشعوبه . إنّ الخطأ كبير

جـداً ، حين يحاول إنسـان محدود الـوسـع والطـاقـة ، محدود العلم ، محدود العصر الذي يعيش فيه ، أن يفسِّر الكون كله منذ نشأته التي لم يشهـدهـا إلى نهايتـه التي هي أيضـاً مـن نبأ الغيب . لـذلك جـاءت التصوّرات مضطربة متناقضة ، تختلط بالأساطير ، والوهم والضلال .

من هنا جاء تميّز نظـرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان ، لأنها جاءت من عند ربّ الكون والحياة والإنسان ، من عند الله الذي لاإله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة :

﴿ عـالمُ الغيب فـلا يظهـر على غيبـه أحـدا * إلا من ارتضى من رسـول فإنـه يسلك من بين يديـه ومن خلفـه رصـدا * ليعلم أن قـد أبلغـوا رسـالات ربهم وأحـاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً ﴾ [الجن : ٢٦-٢٨]

وكذلك :

﴿ قل لايعلم مـن في السمــوات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون * بل ادارك عملهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ [النمل : ٦٥، ٦٦]

ولذلك جاءت جميع الفلسفات البشرية معزولة عن علم الآخرة ، تحمل معها الأساطير والخرافات والأوهام ، لاتقدّم نهجاً متوزانا لحياة الإنسان ، ولا لمسؤولياته ولا لحقوقه . إنها بنت تصوّرها العام على جزئية أو بعض الجزئيات ، وإنها عزلت الحياة الدنيا عن الآخرة فكراً وتصوراً ومسؤوليات وحقوقاً .

إن من أحدث هذه التصورات ماعرضه «ستيفن هوكنج Stephen W. Hawking » حين حاول أن يفسّر نشوء الكون ونهايته في كتابه : « موجز التاريخ للزمن "A Brief History of time" عن طريق المعادلات الرياضية وبعض الظواهر الكونيّة ، فاصطدم بقضايا كثيرة ، وجعل من بعض الفرضيات والظنون حقائق . وحين تحدث عن الإسلام افترى عليه ونحّى البحث العلمي جانباً ، وأخذ بالوهم ، وخلط الإسلام بالنصرانية واليهودية خلطاً عجيباً جاهلاً . ولم يعرض مايقوله الإسلام عن بدء الكون ونهايته ، وعرض أن القديس « **أو جستين**» اعتبر أن بداية الكون كانت قبل خمسة آلاف سنة في كتابه «**مدينة الله** » ، إن الإسلام لم يحدّد زمناً معيناً لبدء خلق الكون أو الإنسان ،

وإنما قدّم الحقـائق المطلقة التي تبيّن كيف خلق الله الكـون ومدة خلقـه لـه ، وكيف خلق الإنســان . ولكن «ستيفن هـوكنج» استعرض أفكار أرسطو الوثنيـة ، وأفكار «إما نيويل كانت» في كتــابـه «نقــد العقل الخالص» الصـادر سنــة ١٧٨١م . كما استعرض بعض النظريات العلمية لنيوتن وكارل بوبر وآنيشاتين وغيرهم . وحصـالـة ذلك كلــه أنـه لم يصل أحـد إلى الحقيقـة المطلقـة بـالنسبـة للكـون ونشأتــه ، وظلت آراؤهم ضربـاً من الظنون والتخمين .

ومن أحدث الكتب التي صدرت كتـاب : «نهاية التاريخ والرجل الـواحد» لفـرانسيس فوكـوياما . يعتبر فـوكويـاما أن التـاريخ سينتهي عنـد الـديمقراطيـة الحرّة التي تسـود العـالم . ووصل إلى هــذه النتيجـة بـأسلــوب غير علمي ولا منطقي ، مستعرضاً عـدداً من الفلسفات التي عرفتها البشريـة استعراضاً مضطربـاً ، بأسلوب غير أمين ، ملغياً التصـور الإيماني كله عن دراسته ، عـازلاً الدنيا عن الآخـرة ، وكأنه أخذ بينـه وبين نفسه بـالنهج المادّي الإلحادي في تفكيره وبحثـه . إن مـن يقـرأ هـذا

الكتاب يشعر بالظلمات التي يعيشها الكاتب ، الظلمات التي حاول من خلالها أن يرى الإسلام فألقى الله على بصره غشاوة فاختلطت الأمور لديه .

قبل ذلك ، ظن أهل المادية الجدلية والمادية التاريخية أن نهاية التاريخ في تطوره ونموه هي الشيوعية التي تمثل خاتمة مطاف الاشتراكية عند فردريك إنجلز وعند ماركس وغيرهما . ثم مضت سنة الله لنرى أن النهاية هي نهاية الشيوعية وسقوطها .

إن جميع هذه الفلسفات سواء أكانت «**مادية أم مثالية**» نزلت بالإنسان إلى أدنى مستوى وهبطت به إلى مستوى حيوانيّ ، وحاولت أن تُبرز إنسانيّته بشعارات مجزوءة ، وبقطع متناثرة مفصولة بعضها عن بعض ، فعجزت بذلك عن أن ترسم صورة قريبة للإنسان ، ولا هي ارتبطت بالإيمان بالله وتوحيده وعبودية الإنسان لربه وخالقه ، لتقدم ، لو فعلت ذلك ، الصورة الأسمى والأصدق . وبذلك أضاعت هذه الفلسفات حقيقة مسؤولية الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، وخلطت بعض حقوقه المادية خلطاً أفسدها ، وعزلت الحقوق عن المسؤوليات .

فإذا كان أفلاطون جعل الشهامة » ، كما يفهمها هو ، هي محرك الإنسان والتاريخ ، واعتبر ميكيافيلّي الرغبة في المجد هي التي تفعل ذلك ، واعتقد «هوبز» أن أقوى انفعال إنسانيّ « هو الخوف من الموت البشع» ، وأقوى الأمور الأخلاقية هو الحفاظ على النفس ، ورأى الكسندر هاميلتون أن حب الشهرة هو الأقوى ، وجيمس ماديسون رأى الطموح ، وهيجل تمسّك برغبة الإنسان بعرفانه واعتراف الناس به ، ونيتشه احتقر الإنسان حتى جعله وحشاً بخدود حمراء وردية ، فإن هؤلاء جميعهم ، وآخرين كثيرين مثلهم من الفلاسفة ، أضاعوا الإنسان في وحل الرغبات المادية ، من خلال شعارات متقاربة في ماديَّتها وألفاظ متدنيّة في شهواتها ، ثمّ رموا البشرية كلها في خضم بحار من مجازر الظلم والعدوان ، امتدت في التاريخ البشري حتى يومنا هذا ، وستمتد على حكمة لله بالغة ، وقدر غالب ، ليُمحِّص الله الإنسان ، ويميز الخبيث من الطيب ، ولتقوم الحجة على الإنسان يوم القيامة أو تقوم له .

عندما يعرض «فوكوياما» في كتابه المذكور أعلاه «نظرية

التحديث » التي ترى الإنسان بصفته الأساسية حيواناً اقتصادياً تحركه رغبته وعقله ، وتكون العملية الجدلية للتطور التاريخي مشابهة للمجتمعات الإنسانية المختلفة [١] ، فإنه يكون قد هبط بالإنسان إلى «**أسفل سافلين** » .

وكذلك يفعل هيجل عندما يعتبر أن المحرّك الأول للتاريخ الإنسانيّ ليس الدافع الاقتصادي ولكن الصراع من أجل العرفان والتقدير في الحياة الدنيا . [٢]

ولكن الإسلام جاء ليكرّم الإنسان ، ويرفعه إلى الدرجة الكريمة التي خلقه الله لها ، ليحتلّها بالأمانة التي يحلمها ، والعبادة التي خُلِق لها ، والخلافة التي جُعِلتْ له ، والعِمارة التي أُمر بها ، لتتحدَّد مسؤوليات الإنسان فرداً وجماعة وأمَّة على أساس ، ولتتحدَّد أيضاً حقوقه ، ولتتناسق الحقوق والمسؤوليات من خلال المنهاج الربّاني نوراً وهدى للبشرية كلها . فحين يتخلّى الإنسان عن ذلك فإنه يهبط إلى أَسفل سافلين :

---

(١) فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ والرجل الواحد – ترجمة د. حسين الشيخ (ص: ١٥٤) .

(٢) نفس المرجع السابق : (ص: ١٥٥) .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذّبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ٤-٨]

وكذلك :

﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [الإسراء : ٧٠]

لقد هبطت بعض الفلسفات بالإنسان حتى جعلته حيواناً ، وغالت بعضها ورفعته حتى جعلته إلهاً ، وجاء الحق من عند الله يكرم الإنسان بمسؤولياته في الحياة الدنيا وحقوقه فيها ، ويجعل أمر الإنسان لاينتهي في هذه الحياة الدنيا ، وإنما يوفّى أجره في الآخرة : **إما إلى جنّة وهذه غاية التكريم ، وإما إلى نار وهذه جزاء الظالمين المفسدين .**

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم

كالذيـن آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محيـاهم ومماتهم سـاء مايحكمـون * وخلق الله السموات والأرض بـالحقّ ولتُجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لايُظلمون ﴾

[الجاثية : ٢١ ، ٢٢]

لقد كرّم الله الإنسان بخلقه ، وكرّمـه بالأمانة التي حملها ، وكرمه بالنهاية التي يبلغها إن هو أوفى بعهده وأمانته ومسؤولياته ، وكان من الشاكرين .

هذه هي نهايـة التاريخ كما بينهـا لنا منهـاج الله الحق الذي لايأتيـه البـاطل من بين يـديـه ولا من خلفـه ، لا كما يـدعي «فوكوياما » من خلال أهواء وعلم مضطرب متناقض .

من هذا العرض للمسؤولية الفـردية نستطيع أن ندرك أهمية النظرية العامة للدعـوة الإسلامية وهي تبرز أهـم حقوق الإنسان وأهم واجبـاته ، والموازنـة الدقيقة التـي يعرضهـا منهاج الله بين الواجبات والحقـوق . ورأينا كيف أن التصور الذي نعـرضه هنا نـابع من القـاعـدة الصلبـة للنظـريـة العـامـة - قضيـة الإيمان والتوحيد والدعوة إلى الله ورسوله .

ومن الـركنين الأساسيين : المنهـاج الـرباني والـواقع . كما نرى أن اضطراب المسـؤولية الفردية نـاتج عن المشكلات الأربع الرئيسة في الواقع ، وأن المعـالجة تحتاج إلى نهج وتخطيط نابع من الأسس الأربعة التي تمثل العنصر الأول من عناصر التنفيذ .

ونـرى من هـذا العـرض أهميـة المسؤوليـة الفـرديـة في بنـاء مسؤولية الجماعـة والأمة . فهي قضية هامة على طـريق بناء الأمة المسلمة الـواحدة في الأرض ، الأمـة التي يحكمهـا منهاج الله ، وتكون فيها كلمة الله هي العليا في جميع أمورها وقضاياها .

ونرى هذه القضيـة اليوم لتكون قاعدة من قـواعد التصوّر الإسلامي في ميدان الدعـوة والتربية والتدريب ، وإعداد الجيل المؤمن الذي يتماسك بـروابطه الإيمانيّة حين يصدق أبنـاؤه الوفاء بالأمـانة والعهـد الأول مع الله والولاء الأول مع الله ، وكـل عهد وولاء ينبع منهما ويـرتبط بهما في الحيـاة الدنيـا ، وبكل مـايترتب على ذلك من مـسؤوليات وواجبات .

الفصل الثاني
المسؤوليّة الفرديّة
وسبيل الوفاء بها

إن هذه المسؤوليات والتكاليف الربانية الثمانية تشمل في طياتها جميع ماورد في منهاج الله من مسؤوليات وتكاليف أخرى، كُلّها مرتبطة بهذه التكاليف الثمانية أو ببعضها أو بواحدة منها .

فالعلاقات بين المسلمين يجب أن تقوم على أساس منهاج الله ، نابعة من الولاء الأول لله والعهد الأول مع الله والحب الأكبر لله ولرسوله ، لتقوم أخوّة الإيمان على أساس ذلك ، ولتحقق هذه الأخوة في الواقع العمليّ في حياة المسلم .

وكذلك روابط الأرحام وبرّ الوالدين وحقوق الجار والرفقة ، كل ذلك يجب أن يوفي به المسلم لأنه جزء من منهاج الله المتكامل وجزء من التكاليف الربانيّة .

والعلاقات مع غير المسلمين تخضع أيضاً إلى منهاج الله

وتقوم على أسسه الرئيسة التي يمكن إيجازها بنقاط سريعة :

١ - أن يكون المسلمون أمة واحدة ليكون لهم جميعاً علاقة واحدة مع غير المسلمين ، فلا تتناقض ولا تتعارض ولا يفسد بعضها بعضهاً .

٢ - الانطلاق مع غير المسلمين بدعوتهم إلى الإسلام كما جاء من عند الله دعوة جليّة صريحة لاتُخفي من الكتاب والسنة شيئاً ، ولا تتناقض معها . تنطلق الدعوة انطلاقا واعيا منهجيّا بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن ، دون أي تنازل أو مساومة أو إخفاء أو تردد ووهن .

٣ - أن يُفهم أن الله قد حدد تفصيلات العلاقة مع غير المسلمين منهجاً متماسكاً يقوم على أسسه الربانيّة التي نوجزها هنا .

٤ - أن يُعرَف بشكل واضح لامراء فيه أن الموالاة هي بين المؤمنين ، وأنها هي رابطتهم الربانيّة التي ينشأ عنها حقوق وواجبات ، مما ليس لغير المسلمين ، وأن هذه الموالاة بين

المؤمنين نـابعـة من الـولاء الأَول لله والعهـد الأَول مع الله والحب الأَكبر لله ورسـولـه . فإن اضطـرب الـولاء الأول والعهـد الأول والحب الأَكبر اضطربت الموالاة .

٥ - أن يُعـرَف منـذ البـدايـة أن أسـاس التعـارف بين المسلمين وغيرهم ليس مجرد تعارف دنيـويٍّ ماديّ ، ولكنـه دعوة وبـلاغ يقـوم عليـه التعارف ، وليكـون أكـرم النـاس عنـد الله أتقاهم . إنـه تعارف هادف يحمل رسـالة ربّانيّـة أُمرنا بإبـلاغها للنـاس كافـة إبلاغـاً منهجيّاً واضحـاً واعياً بأحسن الأسـاليب وأقواها .

وكـذلك يلتـزم المسلم بجميع أحكـام الإسـلام في البيع والشراء وسـائر أبواب التعـامل ، والـزواج والطلاق ، والتربيـة والسياسة والاقتصاد والحكـم .

وبـإيجاز فإن جميـع التكاليف الـربـانيّة تجتمـع في ممارسـة منهاج الله في الواقع البشريّ .

أمـام هـذه المسؤوليـات والتكـاليف يقف بعض المسلمين مترددين خـائفين . ربما يريد بعضهـم التكاليف الهيّنـة الليّنة ،

وربما يعجز بعضهم عن تنفيذ مايظنه كثيراً ، فيوسوس له ، الشيطان بالتراخي والتهاون :

﴿ وإذْ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقّ الحقَّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال : ٧ ، ٨]

وربما كان بعض الناس يريدون الدنيا ويخفون ذلك في صدورهم ويتأوّلون الآيات والأحاديث تأويلاً لن يغني عنهم عند الله شيئاً مهما زيّن لهم الشيطان أهواءهم .

﴿ ... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ... ﴾ [آل عمران : ١٥٢]

ولكن الأمر الصادر للمؤمنين المتقين غير ذلك :

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده .. ﴾ [الحج : ٧٨]

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في

سبيل الله بـأمــــوالكـم وأنفسكم ذلكم خير لكـم ان كنتم تعلمون ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١]

وهكذا تتوالى الآيات لترسـم صراطاً مستقيماً وسبيلاً واحداً للمؤمنين ليس لهم سواه . وإنما نذكر هنا قبسات لتُذكّر وتُشير . ولقد يسّر الله كتابه العزيز ليُتلى ويُتدبّر :

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾
[القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠]

وعندئذ تسهل التكـاليف على المؤمن وهو يمضي على نهج بيّن وصراط مستقيم . فإذا اختلـط عليـه الـدرب واضطـرب السبيل وتشعّبت السُبُل فعنـدئذ يجد الإنسـان الصعـوبـة بعـد الصعوبة والأهواء تتنازعه ، والدروب تتقاذفه .

فوضوح الدرب والأهـداف ، وجلاء النهج والسبيل ، هو الـذي ييسّر على المؤمن هــذه التكـــاليف . وصفـــاء الإيمان والتوحيـد يوفّـر في نفسه الحوافـز الإيمانيّة ، والعلـم بمنهاج الله ووعي الـواقع من خلالـه يضيء له الـدرب ويشقّ له الطـريق ،

ويـوفّـر لـه الأسس الضروريـة ليضـع لنفسـه النهج التفصيلي والخطة التطبيقية .

وعلى هـذه الأسس ننصح المسلم أن يلتزم ، بـالإضافـة إلى النهج العام للدعوة الإسلاميَّة ، بالخطة اليومية والخطة الأسبوعية والخطة السنـوية ، لتيسير الممارسـة عليه[1] ، وأن يلتزم كـذلك بالمنهاج الفرديّ وبمنهج لقـاء المؤمنين . فإن هذا كله يسهّل على المسلم أن ينهض إلى التكاليـف الربانيّـة بعزيمـة وقوة ، ذلك لمن استقرّ في قلبه الإيمان وعزم على أن يصدق عهده مع الله .

إن النظرية العامّة للدعوة الإسـلامية التي نوجزها في آخر هذا الكتاب ، والنهج العام بكامل تفصيـلاته ، إنما وضعا لتحقيق هذا الهدف الكبير : مساعدة المسلم والأسرة والجماعـة والأمة على الوفاء بالتكـاليف الرّبانيّـة كلها ، والوفاء بـالأمانة التي حملهـا الإنسان ، والعبـادة التي خُلِقَ لها ، والخِلافـة التي جُعِلتْ له ، والعمارة التي أُمِر بها ، لينشر بها حضارة الإيمان والتوحيد في الأرض :

(١) يراجع كتاب : النظرية العامة في الـدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبنـاء : (ط : ٣) : البـاب السـادس - الفصل الثاني . من أجل تفصيـلات عن هذه الخُطط .

العبادة .

الأمانة .

الخلافة .

العمارة .

ونورد الآن موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية التي ينطلق منها النهج العام وتفصيلاته ، والفكر والدعوة ، والتجارة والاقتصاد والسياسية ، والدعوة والبلاغ ، والتربية والبناء ، والأدب والفن .

الفصل الثالث
موجز
النظرية العامة للدعوة الإسلامية

نورد هنا موجزاً سريعاً للنظرية العامة للدعوة الإسلامية ، ونجد تفصيلات كل جزء منها في دراساته وكتبه الخاصة به .

تتألف النظرية العامة من البنود التالية ، وهي :

١ - القاعدة الصلبة .

٢ - الركنان الرئيسان .

٣ - المشكلات الأربع الرئيسية التي تتحوّل لدى الدعاة إلى أسس أربعة .

٤ - العناصر الضرورية للتنفيذ والممارسة في الميدان .

٥ - المضيّ على الصراط المستقيم دون توقف ولا انحراف ، والنمو والتطور في الجهد البشريّ المؤمن على أساس من منهاج الله ووعي الواقع من خلاله ، وعلى أساس الإتقان والإحسان .

٦ - الهدف الأكبر والأسمى الدار الآخرة ورضوان الله والجنة .

* * *

١ - القاعدة الصلبة :

هي قضيّـة الإيمان والتـوحيـد ، وهي جـوهـر الـدعـوة الإسلامية وحقيقتها ، وهي القضيـة الكبرى في حياة كل إنسان والحقيقـة الكبرى في الكون ، والهدف الثـابت الأول في الدعـوة الإسلامية ، والمنطلق والزاد الرئيس الأول للداعية .

٢ - الركنان الرئيسان :

هما : المنهاج الرباني - قرآناً وسنـة ولغة عربيّة - ثم الواقع الذي يُـدرَس من خلال منهـاج الله . ويُدرَس كلّ مـن الركنين دراسة منهجيّة تخضع إلى خطـة ونهج . وتكون دراسة منهاج الله وتدبره صحبـة عمر وحياة ، يؤخذ كله ، ولا يـؤخذ جزء ويترك جزء . والقاعدة الصلبـة والركنان الرئيسان يكوّنـان الزاد الرئيس الضروريّ للداعية والدعاة .

٣ - المشكلات الأربع الرئيسة :

عندما ينزل الدعـاة إلى الميدان بزادهم الحق يجدون أمامهم مشكلات كثيرة جداً وقضايا لاتكاد تحصر . ولو صُرِفت الجهود على كل قضيـة جزئيـة لطـال الأمر وضـاعت الجهـود وما بلغنـا

الغاية . ولكنّ جميع القضايا والمشكلات يمكن أن تعود إلى واحدة أو أكثر من المشكلات الأربع الرئيسة ، التي بعلاجها يسهل علاج سائر المشكلات :

أ - الخلل في التصور لقضية الإيمان والتوحيد ، وعدم إنزالها منزلتها العادلة الأمينة ، والخلل في الجهود المبذولة من أجلها .

ب - هجر منهاج الله والخلل في الارتباط به وفي دراسته وتدبره ، حتى لم يعدْ يؤدي الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوّة الخاتمة .

جـ- الخلل في فهم الواقع ، وعدم ردّه إلى منهاج الله .

د - الخلل في الممارسة والتطبيق في الواقع . وهو خلل ناتج عن المشكلات الثلاث السابق ذكرها .

٤ - العناصر الضرورية للتنفيذ في الميدان :

أ - الأسس الأربعة ، وهي المشكلات الأربع الرئيسة السابق ذكرها ، تتحول لدى الدعاة إلى أسس أربع ، فتصبح : صفاء الإيمان والتوحيد وصدقه ، صدق

العلم بمنهاج الله ، صدق وعي الواقع من خلال منهاج الله ، سلامة الممارسة الإيمانية .

ب - النهج الإيماني للتفكير .

جـ- النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية .

د - النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة الإسلامية .

هـ - الإدارة والنظام .

و - ميزان المؤمن .

ز - المؤسسات الإيمانيّة .

ح - التقويم الدوري .

٥ - المضيُّ على الصراط المستقيم دون توقّف ولا انحراف :

على أساس من الإيمان والتوحيد والمنهاج الرباني ووعي الواقع من خلاله ، ليدفع هذا المضيُّ عناصر التنفيذ كلها :

الأسس الأربعة ، النهج والتخطيط العام للدعوة ، النهج لكل ميدان ، الإدارة والنظام ، ميزان المؤمن ، المؤسسات الإيمانية ، التقويم ، ويدفع هذا كله إلى نموِّ الإتقان والإحسان في العمل كله .

٦- الهدف الأكبر والأسمى : الدار الآخرة ورضوان الله والجنة .

هذا هو موجز سريع للنظريـة العامة للدعوة الإسلامية ، يـوضحها الـرسم المرفق ، وتأتي الدراسـات التفصيليّة في سـائر كتب الدعوة التي صدرت بخصوص كل جزء منها .

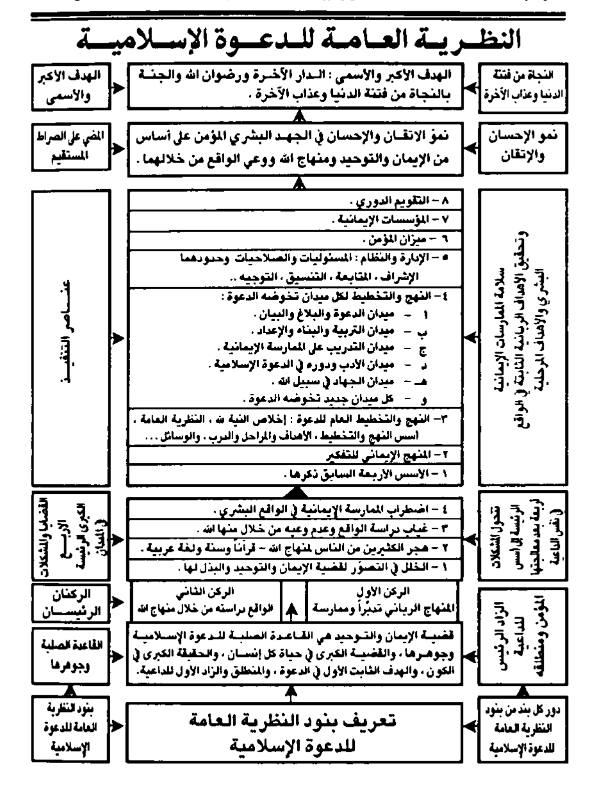
نسأل الله أن يتقبَّل منا عملنا هذا ، ويجعله نصحاً خالصاً صادقاً للمسلمين بعامة والدعـاة بخاصّة ، عسى أن يكون منه أسـاس صـالح للقـاء المؤمنين على الـدرب الممتـدّ لبنـاء الأمـة المسلمة الواحدة .

* * *

وبصورة عـامة سيجـد المسلم الـداعية صعـوبات أمـامه وتحدّيات ، وسيُخفِّف من آثـارها عليه صفاء إيمانـه وإخلاص نيّته ، وصدق علمه بمنهاج الله ، ثم الالتزام بالنهج والتخطيط والمراجعة والتقـويم ، مبتدئاً بنفسـه بالخُطة الـوميّة والأسبـوعية والسنويـة ، والمنهاج الفرديّ ، ومنهج لقـاء المؤمنين ، والتقويم الدوري [١] ، وغير ذلك من تفصيلات النهج العام .

---

(١) يراجع كتـاب : النظريـة العامـة للدعوة الإسـلامية نهج الـدعوة وخطـة التربية والبنـاء من أجل دراسـة النهج والتخطيط : الباب الثـالث - الفصل الثـاني ، والتقويم الباب التامن - الصل الرابع .


النظرية العامة للدعوة الإسلامية
النجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة
الهدف الأكبر والأسمى : الدار الآخرة ورضوان الله والجنة بالنجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة .
الهدف الأكبر والأسمى
نمو الإحسان والإتقان
نموّ الاتقان والإحسان في الجهد البشري المؤمن على أساس من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلالهما .
المضي على الصراط المستقيم
سلامة الممارسات الإيمانية وتحقيق الأهداف الربانية الثابتة في الواقع البشري والأهداف المرحلية
٨ – التقويم الدوري .
٧ – المؤسسات الإيمانية .
٦ – ميزان المؤمن .
٥ – الإدارة والنظام : المسئوليات والصلاحيات وحدودهما الإشراف ، المتابعة ، التنسيق ، التوجيه ..
٤ – النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة :
أ – ميدان الدعوة والبلاغ والبيان .
ب – ميدان التربية والبناء والإعداد .
ج – ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية .
د – ميدان الأدب ودوره في الدعوة الإسلامية .
هـ – ميدان الجهاد في سبيل الله .
و – كل ميدان جديد تخوضه الدعوة .
٣– النهج والتخطيط العام للدعوة : إخلاص النية لله ، النظرية العامة ، أسس النهج والتخطيط ، الأهداف والمراحل والدرب ، والوسائل . . .
٢ – المنهج الإيماني للتفكير
١ – الأسس الأربعة السابق ذكرها .
عناصر التنفيذ
تحول المشكلات الرئيسة الأربعة بعد معالجتها في نفس الداعية
٤ – اضطراب الممارسة الإيمانية في الواقع البشري .
٣ – غياب دراسة الواقع وعدم وعيه من خلال منهاج الله .
٢ – هجر الكثيرين من الناس لمنهاج الله – قرآناً وسنة ولغة عربية .
١ – الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد والبذل لها .
القضايا والمشكلات الأربع الكبرى الرئيسة في الميدان
الركن الأول
المنهاج الرباني تدبراً وممارسة
الركن الثاني
الواقع دراسته من خلال منهاج الله
الركنان الرئيسان
الزاد الرئيس للداعية المؤمن ومنطلقه
قضية الإيمان والتوحيد هي القاعدة الصلبة للدعوة الإسلامية وجوهرها ، والقضية الكبرى في حياة كل إنسان ، والحقيقة الكبرى في الكون ، والهدف الثابت الأول في الدعوة ، والمنطلق والزاد الأول للداعية.
القاعدة الصلبة وجوهرها
دور كل بند من بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية
تعريف بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية
بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية

فهرس كتاب
المسؤولية الفردية
أسسها، وتكاليفها، وتميزها

فهرس كتاب

فهرس كتاب

فهرس كتاب

فهرس كتاب

كتــب المؤلــف

الرقم	الموضـــــــوع	الطبعة
أولاً : الفكر والدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الإسلامية:		
١	النظريـة العامـة للدعـوة الإسلاميـة والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين .	ط ٢
٢	أضواء على طريق النجاة	ط ٢
٣	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ٥
٤	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٥	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٦	النظرية العـامة للدعوة الإسلاميـة - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٧	منهج لقاء المؤمنين	ط ١
٨	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
٩	لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف	ط ٤
١٠	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط ٤
١١	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال	ط ٢

كتـــب المؤلـــف

الرقم	الموضــــــــوع	الطبعة
١٢	الفقه : امتداده وشموله بين المنهاج الرباني والواقع	ط ١
١٣	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	ط١
١٤	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ١
١٥	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميّزها	ط ١
ثانياً : أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج والخطة للدعوة والبلاغ :		
١٦	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
١٧	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
١٨	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ٣
١٩	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٣
٢٠	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط ٤
٢١	الخشوع	ط٢
ثالثاً : بعض القضايا الفكرية في الواقع وبعض أحداثه :		
٢٢	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٣
٢٣	الشورى لا الديمقراطية	ط ٤

كتــب المؤلــف

الرقم	الموضـــــــوع	الطبعة
٢٤	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٢٥	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٢٦	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ٢
٢٧	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٢٨	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية .	ط١
٢٩	على أبواب القدس	ط٢
٣٠	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٣١	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
رابعاً : الأدب الملتزم بالإسلام والنصح «النقد» الأدبي ، والردّ على المذاهب الأخرى :		
٣٢	الأدب الإسلامي - إنسانيته وعالميته	ط ٣
٣٣	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١

كتــب المؤلــف

كتب المؤلف

الرقم	الموضوع	الطبعة
٤٦	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٤٧	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٤٨	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٤٩	ملحمة الغرباء	ط ٣
سابعاً : في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
٥٠	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ٢
ثامناً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٥١	لقاء المؤمنين – الجزء الأول « باللغة التركية »	ط ١
٥٢	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «باللغة التركية»	ط ١
٥٣	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «باللغة الانجليزية»	ط ١
تاسعاً : علوم أخرى :		
٥٤	دراسة الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة «بالانجليزية»	ط ١

دار النحـوي للنشر والتـوزيع

تلفون وفاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري والإخراج بالتعاون مع :

مركز حسن للطباعة - الرياض - هاتف ٤٠٥٥١٤٥/٠١

مع هذا الكتاب

إن دور المسؤولية الفرديّة في الإسلام من أخطر القضايا التي يجب طرحها اليوم. لقد غاب هذا الدور عن واقع المسلمين قروناً طويلة، حتى جمع التاريخ لنا اليوم حشوداً هائلة من المنتسبين إلى الإسلام، تطويهم الغفوة والسبات العميق في لهو وفتنة، أو في تيه وظلام، أو في فاحشة وخمور ومخدرات، أوفي عصبيات جاهلية، تأكل الجهود وتقتلع الغراس وتسحق الثمار، وتنبت الفرقة والتمزق والصراع على شهوات الدنيا ومصالحها وعرضها الزائل، أو تغيب الحشود في خدر وشلل، أو كبر وغرور.

لقد كانت هذه الحشود الهائلة مرتعاً خصباً لأعداء الله، حتى أصبح الكثيرون ينسون التكاليف الربانية، فأهمل المسلمون بعضهم بعضاً، وافترقت الجهود فلم تعد تجتمع لإيقاظ النائمين، أو إنقاذ الضالين. فكم من الناس يغادرون هذه الدنيا على شرك وفتنة تلقيهم في النار، حين لم يجدوا من يلتفت إليهم فينقذهم أو يوقظهم، وحين فصل الدعاة بين أهداف وأهداف، ومسؤوليات ومسؤوليات.

إن المسؤولية الفردية في الإسلام أساس ضروري لقيام مسؤولية الجماعة والأمة، وأساس ضروري لتوحيد الجهود في واقع الدعوة الإسلامية، وأساس ضروري لبناء الأمة المسلمة الواحدة، الأمة التي تكون فيها كلمة الله هي العليا، والتي تكون قادرة على متابعة أهداف الدعوة الإسلامية في الأرض، وتوفير مصلحة الإنسان والشعوب كلها، مصلحة الدنيا والآخرة.

المسؤولية الفرديّة ضرورية حتى تظل جميع الأهداف مرتبطة بواقع الحياة الدنيا من ناحية وبمستقبل البشرية في الدار الآخرة، وتظل المسيرة في الدنيا مرتبطة بالهدف الأكبر والأسمى للإنسان - الدار الآخرة ورضوان الله والجنة - .

ردمك : ٣ - ٤٧ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠

مطابع الحميضي
تلفون : ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس : ٤٥٩٢٢٦٧